



Patricia Melo

Gog Magog

جُوج وماجُوج

باتْريشْيا ميلو

جُوج وماجُوج / رواية
باتْريسْيا ميلو

تَرجَمَها عن اللُّغة البرتغاليّة:
سعيد بنعبد الواحد

الإخراج الفني: ستوديو سيماء

الطبعة الأولى- أكتوبر 2019
978 - 9921 - 712 - 23 - 0 : ISBN
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية- دولة الكويت:
2019/1566

Author: Patrícia Melo.
Gog Magog
Published November 6th 2017 by
Rocco, Brazil.

Translated from Portuguese by:
Said Benabdelouahed



هاتف: 51088000 965+ / 99462219 965+
البريد الإلكتروني: info@daralkhan.com
تويتر: @DarAlKhan_kw
انستغرام: daralkhan_kw

جُوج وماجُوج

باتْريسْيا ميلو

رواية

تَرجَمَها عن اللُّغة البرتغاليّة
سعيد بنعبدالواحد

مكتبة | 717
سُر مَن قرأ



2019

إلى صديقي كْلاوْدْيو روسي



«I will show you fear in a handful of dust»

T.S. Eliot, The Waste Land[1]

(1) «لسوف أريك الخوفَ في حفنة من تراب». ت. س. إليوت، الأرض اليباب. (المترجم)



الجزءُ الأوّل

1

أنا لا أملكُ سمعاً مرهفاً مثل بعض الموسيقيّين، ولا أُذنا حسّاسة مثل بعض الكلاب، لكنّي لم أفهم قطّ لماذا لا يُعدُّ الضجيج سلاحا ناجعا من الأسلحة البيضاء.

إن قهقهة كتلك التي تأتي من الطابق العُلوي، في دفعات هستيرية، حادّة، في عزّ الفجر، لها أيضا القدرة على أن تُحدث جروحا، فكّرتُ وأنا أستيقظ. إنها ليست مثل مسدّس، أو خنجر، أو حبل. مفعولُها أشبه بمفعول بعض السموم التي قد لا تقتل، لكنّها تدمّر صحّتنا. تُحدث تعفُّنا في كبدنا. وتخلق الفوضى في أذهاننا.

ليلة أخرى من النوم المتقطّع. صار الأمر كذلك. في بعض فترات الفجر، يجبرونني على الاستماع لموسيقى مُجدّفة أو آهات جِماع. أصوات. جلبة. في أحيان كثيرة، تهدرُ آلات كهربائية هناك في الأَعلى. تلفاز. إن لم تهدر، فإنها تحدث طرقا. وفي ساعات متأخّرة من الليل، تطقطق. أمّا أقدامُ الشيطان، فحدّث ولا حرج. لا تترك لي لحظة هدوء. تيك، تاك، تيك، تاك، تعبر الرواق، من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هنالك، في عزّ الفجر.

أين هو مدرّس علوم الحياة المسالم ذاك؟ كنتُ أتساءل مع نفسي، وقد أدهشتني الأفكارُ العنيفة التي كانت تعِنُّ لي كلما أزعجني الجار الجديد. كان اسمُه إيغور (Ygor). أجل هكذا، بحرف «إبْسيلونْ»

(Y)[2]. لا بدَّ أنَّ إبْسيلونْ كان مهمّا في عادات والدَيه اللّذين ربّما تُوفّيا، ولذلك كنتُ أناديه السيد إبْسيلونْ.

ما اسم الطفل؟ سأل الكاتب العدل. إنّني أستطيع أن أتخيّل المشهد الذي عاشته أسرة سيلْفا، قبل عَقدَين من الزمن. اسمه إيغور (Ygor) بحرف إبْسيلونْ (Y)، أجابه الأبوان سيلْفا، وهما يعتقدان أنّ حرف (Y) قد يمنح الطفل مستقبلا واعدا، ربّما قد يصبح لاعب كرةِ قدمٍ.

إنه منطقُ أولياء عدة تلاميذ نفسُه، ممّن يملؤون لائحتي بركام من الأسماء المنبورة في المقطع ما قبل الأخير، والّتي تعجّ بصوامتَ مكرّرة وحروف لا وجود لها في أبجديّتنا قبل إصلاح قواعد الإملاء اللُّغوية[3].

والحقيقة، أنّ السحر كان يبدو فعّالا، في حالة السيد إبْسيلونْ. على الأقلّ، سيّارتُه كانت أحسنَ من سيّارتي. وملابُسه أيضا. وهذا ما أجّج عدائي نحوه.

حين اقتنيتُ الشقّة، في بداية مشواري في مهنة التدريس، كنتُ أعرف أنه من الممكن أن أواجه أيّ نوع من المشكلات، مثل العَطَالة، والصعوبة في أداء الأقساط الشهرية؛ بل فكّرتُ -أيضا- في احتمال أن أكون مضطرّا لقضاء بقية أيامي هناك، مختبئا في ذلك الفضاء

(2) يُطلق اسم إبسيلون على حرف «Y» في الحروف الأبجديّة البرتغالية. (المترجم)

(3) اتخذت البرازيلُ، بتنسيق مع البرتغال ودول أخرى تستعمل اللّغة البرتغالية، عدةَ إجراءات من أجل إصلاح قواعد إملاء اللغة وتسهيل كتابتها، وكان آخرها إصلاح سنة 2016. (المترجم)

الضيّق، في حيٍّ قبيح من أحياء المدينة. لكنّي لم أتصوّر قطّ أنه سيكون لي مُولّد ضجيج من ذلك الصِّنف، على بُعد أقلَّ من ثلاثة أمتار فوق رأسي.

من السهل جدّا أن أصعد مجموعة الأدراج الوحيدة التي تفصلني عن السيّد إبْسيلونْ دون أن يراني أحد. لم تكن هناك كاميرات مراقبة في عمارتنا. لو كان وحدَه، يتحدّث في الهاتف، كما يبدو، قد لا أقرع حتّى الجرس. تكفي طرقتان خفيفتان على الباب. وحين يَمثُل أمامي، بعينيه الخنزيريتَين، فسوف أوجّه طلقة نارية إلى جبهته. وانتهى الأمرُ. وفي غضون ثانيتَين سأكون قد عدتُ، واندسسْتُ تحت الملاءات. كيف لهم أن يقبضوا عليّ؟

سوف يُخبر وكيلُ المُلاّك الشرطةَ بشكاياتي المتكرّرة، ويصف تبادل عبارات السبّ بيني وبين السيّد إبْسيلونْ. كانا يعيشان في صراع، قد يقول القاطنون الآخرون. لكن، وماذا بعد؟ لأيّ سبب من الأسباب استبدل «سفر العهد الجديد»، في نهاية الأمر، عبارة «أحبّ جيرانَك» في «سفر العهد القديم» بعبارة «أَحبّ أعداءَك»؟ منذ العهود التوراتية، كان الجارُ مرادفا للعدوّ.

أصعب ما في المسألة، فكّرتُ، وأنا لا أملك قوة لأنهض، ربّما تكون هي الموارد اللوجيستية. أين يمكنني أن أحصل على سلاح؟ في المدرسة؟ مع التلاميذ طويلي القامة أنفسهم الذين يهدّدونني كلّما حصلوا على نقطة صفر؟

إيديرْ -مثلا- شابٌّ فارع يبلغ طولُه مترين تقريبا، ورأسه ممتلئة

بأعشاب المخدّرات. يمكن أن أدفع له أجرا مقابل هذه الخدمة. لا أشكٍّ في خبرته في هذا المجال. بطريقة أو بأخرى، كلّ أولئك الأطفال الفقراء، الذين يغادرون التعليم الأساسي شبه أميين، ينتهي بهم الأمر في عالم الجريمة. أنا متأكّد أنّ إيديرْ سيكون سعيدا إن لم يكن مضطرّا لحضور دروسي. حضور مضمون ونقطة عالية حتّى نهاية الموسم الدراسي، قد أقول له، إن أسديْتَ لي خدمة صغيرة. هل تريد أن أغيّر إطار سيّارتك، يا أستاذ؟ لا شيء من هذا. أريدُك أن تقتل جاري. نحتاج فقط للدرّاجة النارية التي تركبها حين تشتغل ساعي مكاتب، وإلى السلاح الذي تستعمله لتنفيذ عمليات السطو في نهاية الأسبوع.

حكى لي أودابيرْ، أستاذ الرياضيات، أنّ كثيرا من تلامذتنا يشاركون في عمليات السطو أيام السبت والأحد، ليكملوا ما يحصلون عليه من مداخيل في الاشتغال سُعاة مكاتب أو حمّالين في السوق الممتاز.

اذهب على متن درّاجتك النارية يا إيديرْ، وانتظر حتّى يخرج جاري من المرآب. من السهل أن تتعرّفه: شخص به آثار جُدَريّ، يقود سيّارةً جديدة. ليس ثمّة اثنان مثله في العمارة نفسها. تعقّبْهُ مسافةَ فرسخَين حتّى تحين الفرصة، إنك تعرف، وتختلي به في مكان مقفر من حيّنا الكئيب. أليس هذا بالأمر الهيّن؟

في البداية، لن يثير الأمرُ شكوكَ أحد. حتى لو كان هناك شهود، من سيجرؤ؟ ثمّةَ قواعدُ هنا. لم نرَ شيئا، لم نسمع شيئا، لم نقل شيئا، كما

في حكاية القرود الثلاثة[4]. إنّنا نخاف من اللصوص ونخشى الشرطة. فهؤلاء يؤذوننا وأولئك يستهدفوننا. المُعضلُ، أنهيتُ تفكيري محبطا، قد يكون هو القاتلَ نفسه. وماذا لو أخذ، في الأخير، يساومني؟ هل أكون مضطرّا لتربية محتاج قاتل في المدرسة؟ جوسلين الذي يقتلُ ويسْلي الذي قتل شْويلتون الذي قتل إيديرْ؟ حتّى إن لم يبتزّني القاتل، فهناك -أيضا- خطرُ أن يقبضوا عليه، في مستقبلٍ ليس بالبعيد، بسبب جريمة أخرى؛ فيشيَ في النهاية بتورّطي في موت السيّد إبْسيلونْ. فكيف لي أن أضع رأسي على الوسادة هانئا لأنام؟ كلّا، فكّرتُ، إن كان لا بدًّ من القتل، فمن الأحسن أن أضغطَ بنفسي على الزناد. وفي هذه الحالة، تساءلتُ، هل يمكن أن أُعوّل على نفسي؟ هل أكون أنا أجدر بالثقة من أيّ لصّ مسلّح آخرَ؟ فالسيطرة على الذات فنٌّ أكثر تعقيدا من فنّ ارتكاب جريمة من الجرائم. وماذا لو فشلتُ؟ ماذا لو أخطأتُ هدفي؟ ماذا لو أرديتُه كسيحا بدل أن أقتله؟ أو ماذا، حتّى إن نجحتُ، لو نهشني عذابُ الضمير وأنا حيّ؟ أنا لستُ قاتلا، كرّرتُ بصوت عالٍ، وأنا أقفز فوق جسد زوجتي. مارتا لم تتحرّك في السرير. دأبَت على تناول حبوب منوّمة كانت تجلبُها من المستشفى الذي تشتغل فيه، أدوية نفسية قوية يتجاوز مفعولها جلب النوم؛ فتسبّب ما يشبه غيبوبة ليلية، انتحارا لا يمكن عكس مساره إلا صباحا. لماذا لا أفعل الشيء نفسه؟ ربّما أحلّ مُشكلَ التوتّر، هذا صحيح. لكن التدريس يخلق ما يكفي من المشكلات تصْرفُني عن الاهتمام بنزيف الأمعاء أو أشياء أفظع من هذا كما جاء وصفُها في الوثائق. التهاب

(4) أو حكمة القرود الثلاثة كما في المثل الياباني المستوحَى من التعاليم الكونفوشية، والذي يوصي المرء بألا يرى الشرّ، ألا يسمعَه وألا ينطقَ به. (المترجم)

الكبد. السرطان.

انسَ هذا الخِلاف، كانت مارتا تقول لي -وهي على حقّ- اذهب وصحِّح التمارين. اذهب لتحضير دروسك. إنه من غير المجدي أن تردّ علىَ ذلك بنزق، كانت تظنّ. نظريًا، كنتُ أوافقها الرأي. عمليًا، كنتُ أتبوّلُ على النظرية؛ لأننا كنّا قد قرعنا جرْس الرجل، نحمل معنا قنينة خمرٍ وجدتُها بعد ذلك مُلقاة في قمامة العمارة، وهي لا تزال مغلقة.

غالا، قطّتُنا العجوز، تبعتني نعسانة عبر أرجاء البيت ثم اختبأَت تحت الدولاب حين رأتني آخذ مِكنسةً من المطبخ.

سحبتُ كرسيًا من الفورميكا نحو وسط البيت ثم جثمتُ فوقه، أمسك المكنسة كمن يشهر سيفا. انتظرتُ حتّى سمعتُ ها ها ها ها ها ها ها ها ها ها ها ها ها ها الشيطانية، وعندئذٍ، ضربتُ السقف بقوة كما لو أنّني أنقر بطن تنين.

لم يكن التكتيك المنزليّ حلّا، لكنّه كان يسيطر على المُشكِل، بالإضافة إلى وظيفته كصمام ضدَّ الحقد الذي دأبتُ على تربتيه منذ أن دخلنا في ذلك الخلاف، قبلَ أكثر من ستّة أشهر. لم تكن غالا تحبّ ذلك. اضطررتُ لأن أخرجَها من تحت الدولاب، وأن أدعك أنفي على خطمِها، كما أفعل دائما لأهدّئ من روعِها.

كنتُ متوجّها نحو الغرفة من جديد، والقطّة فوق كتفيّ، عندما حدث أمر غيرُ عاديّ. تردَّدَ في القاعة ما يشبه صدى متأخّر لضرباتي. وفجأة، ران الصمتُ. صمتٌ رديء، مصطنع، يعجّ بالتهديد. شلّني

الغضبُ، فلم أعد أسمع غير تنفّسي وأنا أتحرّك مثل قنّاص. عدتُ إلى المطبخ، وأخذتُ المكنسة. هرعَت غالا لتختبئ وراء الثلاجة. وخزتُ السقف بقوة أقلَّ فقط لأرى إن لم يكن هناك في الأمر من مكيدة. وما هي إلا دقيقة حتّى جاء الردّ من عَلٍ: طوكْ طوكْ طوكْ. ثم عبرت ضحكةٌ تجديف أخرى السقفَ لتستقرَّ في دماغي كما لو أنها سكين حادّة.

شعرتُ بتشنُّج داخليّ، حزّة ألم في السرّة ارتعش لها جسدي كلُّه، حتّى أخمص قدميّ. فهل كان الأمر كذلك؟ بالإضافة إلى أنّه يزعجنا، هل كان ذلك البئيس يسخر منّا الآن؟

انفجرتُ غضباً، فضربتُ السقف مرّة، عشر مرّات، عشرين مرّة، كما لو كنتُ يونُسَ وهو يحاول أن يفلت من أحشاء الوحش البحريّ. كما لو كنتُ إسماعيل وهو يصارع الحوت الأبيض. لم تكنِ الرغبةُ في قتل جاري هي الشيءِ الوحيد الذي يستنزفني. كنتُ، بدورَي، أرغب في أن أنقر أحشاءه وأُخوْزق جسده بوساطة مِطْرد أرتجلُه.

لم أتوقّف إلا عندما رأيتُ الأرضية مغطّاة بشظايا من الجصّ. كانت ذراعاي تحترقان. مُنهكاً، رميتُ المكنسة، يعتريني شعورٌ فظيع، كما لو أنني اختُزلْتُ في حفنة من الأعصاب والدم.

جلستُ على الأرض المتّسخة ببقايا الملاط، ثم أغمضتُ عينيّ، وأنا أفكّر أنّه لو عرفتُ كيف أبكي لربّما كان ذلك مفيدا لصحّتي. شعرتُ أنّني قد تعرّضتُ لاغتصاب. كنتُ محبطا. متسمّما. كان ذلك الرجل يمتصّ طاقتي. يختلسُ ليلي، ويوم أحدي، وهدوئي.

لا بدَّ أنّه هكذا يتشجّعُ شخص ما في النهاية، فكّرتُ. في لحظة كهذه، مُسدس في المتناوَل هو كلُّ ما يحتاجُه رجلٌ مسالِمٌ ونزيهٌ مثلي ليصبح قاتلا حقيقيّا.



2

تيكْ. تيكْتيكْ. أقدام تمشي جيئة وذهابا. حمّام. غرفة. تيكْ. تيكْتيكْ. ثم حمّام. ثم غرفة. أخمص القدمين. عقب. إنها رقصة السيّد إبْسيلونْ الصباحية، مع خبب قصير، خفيف، على إيقاع مسترسل ومتوتّر، يسمح لي برسم صورته المفترضَة: شخص عُصابي، غيرُ منظّم، ومضطرب. فماذا يكون ذلك؟ أيكون تطهُّرا عن طريق الثقة؟

وأنا جالس إلى مائدة الإفطار، بعد أن ذهبتُ مشيا على الأقدام حتّى المخبز وأعددت بيضا مقليّا، كنتُ أشعر كما لو أنّ حذاء السيّد إبْسيلونْ يعفس على خبزي الطازج، يطأ سلاطة فواكهي ويدوس مستقبلي.

جاءت مارتا ملفوفة في ثوب الحمام القديم بلون الفئران، ثم ولجت الصالة تجرجر خفّيها، والتي قبل أن تنضمّ إليّ، اتصلَت بالمستشفى لتسأل عن أخبار أحد المرضى.

عموما، يذكّرُني وجهُها الشاحبُ بتلك الملابس القديمة الجيدة التي بالغوا في غسلها فانكمشت عند تنظيفها. هذا ما فعله بها المستشفى. ولا يعني هذا أنّني أفوقُها نضارة. التدريسُ بدوره يستنزف المرء. على الأقلّ، أنا كنتُ رجلا. أعني أنّه لو نظر إليّ الناس في الشارع، لرأوا رجلا. أمّا المرأة مارتا، فقد نخرتها المداومة في العمل. تقلّصت، وسقطت بتلاتُها. لم يتبقَّ منها غير حفنة من اللحم لمِلءِ السترة والإمساك بالحقنة.

لكن، في ذلك الصباح، لاحظتُ شيئا جديدا في وجهها الصغير. وهي تتحرّك متحدّثة في الهاتف، كان ضوءٌ ذهبيّ يبرز في شعرها المنتفخ. أخيرا، لقد سمعَت نداءات ابنتنا ووضعَت حدّا لشعرات الشيب. فكّرتُ في أن أطريَ على شعرها. إنّه جميل، كنتُ على وَشْك أن أقول حين وضعَت مارتا السمّاعة. لكن، قبل أن أنبس ببنت شفة، كانت قد بدأت تحكي لي أنّ فلانا قد مات من فوره في جناح التمريض. «كنتُ أعرف ذلك»، قالت وهي تملأ الفنجان بالقهوة التي حضّرتُها للتو. «إننا نستشعر مثل هذه الأمور»، تابعت، «لذلك عَلاقة بالعينَين، فالعينانِ تموتان أولا. هي أوّل ما يموت. أحيانا، يظلّ باقي الجسد هناك يصارع، يريد أن يبقى، لكنّ العينين تكونان قد استسلمتا للموت».

«كأنّها جرذان في سفينة آيلة للغرق»، فكّرتُ أن أقول مُعلّقاً. أخمص القدمَين وعقب. تيكْ. تيكْتيكْ. كنتُ أريد أن أتكلّم. أخمص القدمين وعقب. كنتُ بحاجة لأتكلّم. هاتفُها الخلويّ مليء بصور أشخاص في حالة يرثى لها، منهم الشفّافون، والممزّقون الذين رُتقت أجسادُهم، بعضُهم مصابون بالسرطان، وبعضُهم باحتشاء عضلة القلب، رُبط بعضُهم إلى أنابيب وشُدّ آخرون إلى كراسيَ متحرّكة، هذا اسمُه غيليرمي وتلك تُدعى روزانا، هذه نوزْما وذلك ماوْريسيو، كلُّهم تتحسّن أحوالهم أو يموتون، أحيانا تتحسّنُ أحوالهم فجأة ليموتوا بسرعة بعد ذلك. ليس لأن مارتا كانت تريد رأيي وهي تسرد لي تلك الحالات، ولم يكن ذلك حديثا، أو حوارا، بل كان بالأحرى «تفريغا»، طريقة تتخلّص بها مارتا من سرطان الآخرين، ومن انتفاخ

رئة غيرها، من التوقّف المفاجئ للحواسّ والعدوى العامّة التي كانت تُشكّلُ جزءاً من روتينها اليوميّ. اقتضت العادة أن أصغيَ إليها بإمعان، وأُبدي لها استعدادي، وتلك كانت طريقتنا في العشرة والمؤانسة: هي تفرّغُ وأنا أستقبل. على الأقلّ، أثناء قهوة الصباح. لكن، فجأة، كان ذلك الشيء بيننا: تيكْ. تيكْتيكْ. غرفة وحمّام. ثم حمّام وغرفة.

إنّه يستعدُّ للخروج، -قلتُ وأنا أشير بأصبعي إلى السقف. هل سمعتِ؟

كما لاحظتُ، يحتاجُ السمعُ بدوره لشيء من الذكاء. إنّني لا أقول إنّ مارتا بليدة، لكنّ بعض الأشخاص لا يسمعون سوى ما يرَون.

ـ هل تسمعين؟ قلتُ مُلحّا.

أطلقَت تنهيدة تنمُّ عن نفاد صبرِها. اليوم أتساءل إن كان ممكنا أنّ تقلّبات مزاجيّتها كانت -أيضا- نتَيجة جانبية لما كان يُحدثه السيّد إبْسيلونْ من ضجيج. ألن يكون الأمر مختلفا لو أنّ آذاننا، بدل أن تكون طوال الوقت مفتوحة على موجات طوليّة وذبذبات من أسوأ الأشكال، تتوفرُ -أيضا- على حماية، كتلك التي تقي عيوننا؟ ماذا لو أنّ غشاء سميكا يعطّل قدرتنا على السمع وَفق رغباتنا؟ على الأقلّ أثناء النوم. إنّنا لسنا فقط ما نأكلُ من طعام، كما بدأتُ أظنّ، بل نحن -أيضا- ما نسمعُ. في المدرسة، على الأقلّ، كان من الممكن التحقّق من هذه الظاهرة. ما الذي يحدث، بحقّ الرّب؟ كنّا نتساءل أثناء اجتماعات المدرّسين، وقد زرعت تصرّفات الأطفال الرعب في نفوسنا. كان المشاغبون يضحكون في وجوهنا. يسبّوننا. بل كانوا

يقتلوننا، عندما يحصلون على سلاح. كنّا نعيش في الرعب. لا ندير لهم ظهورَنا ونحن نكتبُ على السبورة. خطرُ الهجوم كان قائما على الدوام. أمّا الطّردُ، فلم يكن له مكان قطّ. مع الأصفار تبرز التهديدات ويظهر الإحباط. يغادرُ أعضاء هيئة التدريس المدرسة قُبيْل منتصف الليل، مع رنّة الإشارة، في جماعة متلاحمة، مذعورين، ينظرون إلى جنوبهم، خوفا من أيّ فخّ عند زاوية الشارع. لن أُدهَشَ لو أنّ تحقيقا أمريكيا أظهر لنا في المستقبل أنّ أكبر معضلة يعاني منه تلامذتنا هو «الهيبْ هوبْ»، كما قلتُ ذات مرة. و»الفونك». الضجيجُ يقتل البكتيريا، هذا أمر ثابت. فما الذي لا تفعله تلك النفايات الموسيقية وذلك الضجيج الحضري بتعاطفنا؟

ألا يمكن أن تكون مارتا، مثلي، مذعورة بما يصدر عن السيّد إبْسيلونْ من بْلاشْ، وبْلينْ، وكْراشْ وكلينْغ؟ كلُّ ما أستطيع قولَه إنّني، وقتئذٍ، لم أعد أستطيع فَهم زوجتي. كنتُ أشعر أنّني تائه بسبب تصرّفاتها المتقلّبة. إن وافقتني الرأي يوما، ألقت عليّ باللائمة في اليوم الموالي. تارة تفهمني، وتارة تكرهني. «أنت تشكو أكثر من اللازم»، قالت لي في ذلك الصباح. نهضَت عن المائدة، تحمل طاسها وصحنها، ثم قالت إنّني بدأتُ أخرف «بطريقة فظيعة».

حرصتُ على ألا أجيبها؛ لأنني أعلم أنّها كانت ستنفجر. لكنّ الانفجار وقع بضع ثوانٍ بعد ذلك، عندما انتبهَت مارتا إلى ما أصاب سقف المطبخ من أضرار. تركتُها لتصيح، وتنطّ، وترغي وتزبدّ. وأخيرا، طفقت تطقطقُ كأنّها مِلْحٌ ألقي فوق نار مستعرة.

دنوتُ منها، وحملتُ ما بقي من أوانٍ متّسخة. كانت مارتا تلاحظ الجصّ الذي امتلأ ثقوبا، فأخذ جسدها ينفلقُ من الغضب.

ـ إنها النهاية. أظنُّ أنّ هذا هو ما قالته.

ـ سوف أرتّب كلّ شيء. أكّدتُ لها.

ـ أنت؟ سألَت بنبرة ساخرة. فأجبتُها:

ـ إنّنا على وَشْك أن نخوضَ إضرابا. سوف يكون لدي ما يكفي من الوقت لاحقا.

ـ إنك لا تعرف كيف ترتّب أيّ شيء يُذكر. ردّت عليّ، قبل أن تتركَني وحيدا، مسمّرا في المطبخ.

لم أستغرب عندما أخبرتني، لاحقا، أنّها ستشتغل نوبة عمل إضافية يوم السبت لتعوّض إحدى صديقاتها. أعجبتني فكرة البقاء وحدَي، ولم يخطر على بالي أن شيئا مشبوها كان يحدث.

عند الظهيرة، بعد أن غسلتُ زيّنا الرسمي ورتبتُ البيت، أخذتُ رزمة من أوراق التمارين وجلست في الصالة، رفقة كأس جعة؛ لأباشر عملية التصحيح.

كان عطر نظافة طيب يمتزج بروائح المانجو والجوافة التي وضعتُها في سلّة الفواكه، ثم دفعني إحساس جميل أن أمدّد رجليّ فوق الأريكة لأنام قيلولة قصيرة. عندما خيّم الصمت، أخيرا، وغطّى كلّ أشكال الضجيج المنزلية، شعرتُ كأنّي تحت تأثير مخدّر قويّ.

لكنّه لم يكن سوى الصمتِ. ولا شيء سواه. بل إنّه لم يكن حتّى صمتا شاملا؛ لأنه هذا قد يكون هو السعادة التامّة، والسعادة لا توجد كاملة، بل مجزّأةً، مثل كلّ الاختراعات الصناعية.

نمتُ نوما عميقا، كما لم أفعل منذ مدّة طويلة، ورأيتُ أحلاما جميلة. مع بداية الليل، أيقظني نوع من الموسيقى لا تصلنا فقط عبر السمع، بل عبر كلّ ثقوب جسدنا، ثم تخدّر حواسّنا كأنّها فيروس من الفيروسات التي تصيب الطيور.

في الدقيقة الموالية، كنتُ في الطابق العُلويّ، أقرع جرْس السيّد إبْسيلونْ. هو نفسه من فتح الباب. عينان ضيّقتان، شعر متصلّب، رجْلان قصيرتان، يبدو كأنّه قنفذ ألمانيّ. كنتُ قليل الأدب، أعترفُ بذلك. مقتحما. حاولتُ أن أدخل. حتّى بعد أن أوقف تلك الآلة التي ينبعث منها الصوتُ، ظلّت تلك الموسيقى الشيطانية تطنّ داخل رأسي.

ـ لا يشكو أيّ أحد من سكّان العمارة. قال، عندما عرضتُ عليه المعضل من جديد. ومرة أخرى، استعرضتُ عليه كلّ أنواع ضجيج النهار والليل. وصفتُ مرة أخرى جرجرة الأثاث، وصخب الليل، وفيض الانفجارات، بالإضافة إلى آهات المضاجعة.

كانت عيناه تلمعان سُخريةً. «إن ما تطلبُه منّي يا سيدي»، قال بصوت خفيض، مازحا، كما لو أن هناك جمهورا يتابع عرضه. «إنّ ما تطلبه منّي، يا سيدي، هو ألا أكون. الحياة ضوضاء»، قال، وهو ينهض ويقوم بثلاث قفزات صغيرة على رأسَي قدمَيه، كأنّه أرنب محترز.

كان يسخر منّي. «إنّ ما تسمّيه ضجيجا، يا سيّدي»، قال «هو أنا أعيش حياتي. لا يمكن أن أعيش صامتا، وأحيا بالهمسات، وأعيش بحجم صوت منخفض، وأنتعل خُفَّين»، تابع بشكل تهريجي، ثم أطلق، في الأخير، قهقهة متكسّرة في وجهي.

لستُ شخصا ميّالا إلى الشجار. أسجّل كلّ شيء في كراستي الذهنية، وبها أنجز محاسباتي السوداء. جفاء، فظاظة، خدمة مرفوضة أو مطلوبة، أسجّل كلّ شيء بعناية. ويأتي الانتقام في اليوم الموعود. فأقدّم لهذا درسا أخلاقيّا، ولذلك سخرية مضاعفة. وكلّ من طرق بابي، لا أتركُه يذهبُ خاوي الوفاض. هكذا أتصرّف. وهناك، بالفعل، كانت النقطة التي أفاضت الكأس. ما إن أطلق العِنان لضحكته، حتّى قمتُ، في الحين، ودفعته من كتفَيه. هو -أيضا- تصرّف باندفاعية، فطردني خارج الشقّة بدفعة على صدري. «أيّها المعتلّ اجتماعيّا»، قال، وهو يصفق الباب في وجهي.

أيّها الكلب. أجبتُه من الردهة، وأنا أشعر أنّ الحقد ينفتح أمامي كأنّه بحر عظيم لا حدود له.

3

تأخّرَت حربُنا أسبوعاً آخرَ تقريبا قبل أن تندلع. وقد قام السيّد إبْسيلونْ بما يتعيّن عليه القيام به: خبط الأرض برجلَيه، ساطها، واصطدمت عظامُه طوال الليل. بإلحاح. أمّا أنا، فأستطيع القول إنّني اعتنيتُ بحقدي كما لو كان وردة، وغذّيته بالمرارة عوض السّماد. عليّ أن أعترف -أيضا- أنّ قُوى غريبة أسهمت في مأساتي. لا أريد هنا أن أقوم بأيّ إعلان سالف، لكن هذا الحادث علّمني شيئا، وهو أنّ الإنسان يكون حرّا في جموده. ولم أتخلَّ بعد ذلك عن اعتبار أن اليونانيين يمكن أن يكونوا فاشلين تماما اليوم، لكنّهم كانوا محقّين بشأن القَدَر. الآن أعرف أنّ القسط القليل من الاختيار الذي نملكُه نحن، بني البشر، هو قرار الشروع في سيرورة معيّنة. في الحقيقة، لدينا خياران، لا ثالث لهما. يمكن أن نأكل التفاحة أو نظلّ جامدين كالحجارة. فحرّيةُ الاختيار ليست شيئا أكثر من هذا: تفاحة أو حجارة. يمكن أن نكون حجارة في حقل. لا نلد ولا ندير تجارة، كما يعلّمُنا أبيقور. لكن، لو نحن أطلقنا الفعل، لو نحن عضضْنا أول عضّة، كما فعلت حوّاء، لَمَا تحكمنا في حياتنا. تشرع قوى أخرى في العمل، وهذا ما يسمّى القَدَر.

كان ذات ليلة معقّدة، يوم قررتُ أن أطلق أول قذيفة. كان الجوّ رطبا، والقيظُ ينخرُ المدينة. كنت عائدا من يوم متوتّر في المدرسة، بعد أن مررت بموقف حَرج غير مسبوق مع تلامذتي. شيء مهمّ للتاريخ -أيضا- أن يُدوَّن هذا الأمر كذلك: الأرض، والمريخ وكواكب أخرى

كانت مجسّدة في كرات عازلة، ومثبتة في قضبان اللحم المشويّ. كنت أحرّكها حول الطاولة، حيث كان هناك مصباح ثابت ومشتعل، يرمز إلى الشمس. بهذه الطريقة كنتُ أشرح حركة دوران الأرض وتنقّلها، عندما نهضت طفلةٌ تجلس في الصفّ الأول وقالت إنّ ذلك ليس هو ما تعلّمته في الكنيسة.

ـ ما يتحرّك هو الشمس. أكّدتْ.

ـ وماذا يقول الكتاب المقدّس بالضبط؟ سألتُها.

الشابّة، التي كان شعرها ممدّدا ومشدودا إلى رقبتها التي تتدلّى منها كتفيّة كبيرة تبدو كأنها نُسالة، شرعت في شرح غير منسجم حول حدث خصام يشوع مع الشعب العدوّ حول أرض كنعان، في سفْر يشوع. لم أكن أعرف الكتاب المقدّس، ولا أعرف مَن هو يشوع، فكيف لي أن أعرف أعداءه. لذلك بدأتُ أطرح أسئلة عجزت التلميذة عن الإجابة عنها. حينئذٍ، نهض تلميذ آخر من الإنجيليّين وقال إنّني أتهكّمُ من الرّبّ ثم غادر حجرة الدرس، ولم يتبعه فقط الإنجيليّون الآخرون بل القطيع كلّه الذي لم يكن هناك من أجل متابعة درسي.

بقيت وَحدي في القاعة، دائخا. لم تكن تلك أول مرة أواجه فيها ذلك النوع من الأحداث. وجدتُ صعوبة كبيرة أثناء الدروس الليلية، في تدريس نظرية تطوّر الأنواع. لكن، في تلك اللحظة فقط انتبهتُ لما قد يحدث في المستقبل المنظور.

هرعت نحو الإدارة وأخبرتهم بالحادث.

ـ أرى أن هناك خطرا حقيقيا يتهدد التدريس. قلتُ.

ـ إننا من دون ماء ولا ورق. قالت كارْمِنْ، المديرة، قبل أن تتركني وحدي في مكتبها.

تضاعفت حيرتي. بالنسبة لي، كان من المتوقع أنه في غضون بضع سنوات، ربما لن نستطيع تدريس علم الأحياء التطوري في المدراس. باتت أيام دارْوين معدودة في التعليم الثانوي. والآن اتضح أنّ الأمر لم تكن له أدنى أهمّية. وليذهب داروين إلى الجحيم، فكّرتُ. ما معنى أن نهتمَّ بدارْوين عندما لا يتوفّر الورق والماء في المدراس؟

قبل أن أغادر، أخذتُ الكتاب المقدّس من رفوف مكتبة المدرسة.

قرَّرتُ لاحقا، في البيت، وأنا أنتظر مارتا، أن أقرأ سفْر يشوع. عندما نزلتُ إلى المرآب؛ بحثا عن الكتاب الذي نسيته في كرسيّ السيّارة الخلفيّ، لاحظت خدشا في هيكلِ الباب، فوق خزّان البنزين. ولم يكن ممكننا القيام بذلك إلا في تلك اللحظة. لو كنّا نملك كاميرات مراقبة، لربّما تصرّفت بحذر، ولكان حظّي أحسن حالا. وفي غياب ذلك، أخذت كلّ حريتي لأخدش بالكامل بمفتاحي سيّارة شوفْروليه زرقاء التي كانت في حوزة السيّد إبْسيلونْ.

وتسارعَت منذئذٍ الأحداث. كانت معركة صامتة، لم يتباهَ بها أيّ واحد منّا، أثناء تلك الفَترة من الصراع، ولم يفكّر أيّ واحد في العدالة.

في بداية الأسبوع، عندما بدأ الإضراب في مدرستي، قام هو بثقب إحدى إطارات سيّارتي الخلفية، فتبوّلتُ على الجريدة التي كان

مشتركا فيها. فكان ردّه حفلا صاخبا يوم السبت. يوم الأحد، أدخلتُ مسمارا في قُفل بابه؛ ممّا اضطرّه إلى البحث عن قفّال في عزّ الفجر.

استغربتُ الأمر حين لم تعد غالا إلى البيت يوم الأربعاء، لكنّي لم أفكّر حتّى في إمكانية أنّنا بلغنا مرحلة تصفية الكائنات الحيّة. الجميع في العمارة يعرفون قطّتنا. لقد اعتادت أن تدخل وتخرج من الشقّة؛ لتأخذ حمّامَ شمس في الفناء المجاور للمرآب، عبر النافذة المعلّقة التي تطلّ على فضاء الخدمة.

وقُبيل الساعة التاسعة، خرجنا أنا ومارتا نبحث عنها في مرافق الملكية المشتركة، نتخيّل أنّها ربّما تكون سجينة في مكان ما.

كنّا قد قمنا بجولة كاملة حول الجزء الخارجيّ من البناية، ووقفنا عند الباب نتحدّث مع فرانسيسْكو عندما مرّ السيّد إبْسيلونْ بالقرب منّا رفقة مضيفته الجوّية التي ترتدي رُوباً على الصدر، امرأة آسيوية، تافهة جدّا، تنتعل خفّاً جلديّا مطقطقا ظلّ يرفرف في أذنيّ طَوال الأسبوع. «لقد قتلتُ قطّتَك»، قال لي، ليس بالكلمات، بل بعينيه فقط. سرى بردٌ عبر عمودي الفِقْريّ. وحين لمحتُ، برعشة رعب، جسم غالا النحيف والأعزل مرميّا في بالوعة من بالوعات الحيّ، أدركتُ أخيرا طابع صراعنا اللّوْلبي. ذلك الأمر لن يتوقّف. لن يتوقّف؛ لأن السيّد إبْسيلونْ لا يمكن أن يتوقّف. لأنّني لا أستطيع أن أتوقّف. لأنّنا وضعنا قوى أخرى وشغّلناها فصارت تتعامل معنا كما لو كنّا لها عبيدا.

في البيت، داخل المطبخ، بينما كنّا نسخّن حساء العدس الذي أخرجته مارتا من الثلاجة، تحدّثتُ عن شكوكي. فواجهتني، غير

مصدّقة: «ولماذا قد يقوم أحدهم بهذا الأمر؟» سألَت، دون أن تتوقّف عن تحريك القِدْر.

ـ الغضب. أجبتُها.

ـ لكنّ غالا لا تُؤذي أحدا.

ـ إن كنت تريدين سببا ملموسا أقدّمه لك: فضربات المكنسة.

لم تكن مارتا على علم بما تبادلناه مؤخّرا من قذائف وقنابل أنا والسيّد إبْسيلونْ. كنت أحاول أن أتركها بعيدة عن هذا الموضوع.

قالت مُعلِّقة:

ـ ربّما يكون أحدهم قد وجد غالا تائهة في الجوار وأخذها إلى بيته.

ـ هو من فعل ذلك. قلتُ بإلحاح.

ـ لقد اختفت غالا في مرّات سابقة.

ـ لقد قتلوها. صحتُ غاضبا.

لم يكن قصدي أن أجعلها تبكي. كنتُ أريدها فقط أن تفهم أنّ الناس ليسوا بحاجة إلى دافع قويّ ومتين ليقترفوا فظاعة. «يكفي انعدام التعاطف»، قلتُ. تكفي اللامبالاة.

وصلَت هيلينا في الوقت المناسب لتتناول العشاء معنا، واطّلعت على الأمر. لم تكن هيلينا ابنتي، لكنّها كانت تناديني بابا منذ سنّ

السادسة، عندما تزوّجتُ مارتا. بينما كنّا نتناول الحساء، حاولَت أن تتراجع عن كلّ ما ظلّت تردّده في الماضي القريب. قبل أقلّ من شهرين، كانت تؤكّد لي أنّها لا تستطيع أن تتعاقد مع محام متخصّص في القانون العقاريّ. «إنّ نظامنا ليس مقصّرا في مسألة التوتّر السمعي فحسب»، قالت. «بل إنّه -أيضا- مكلّف وبطيء. سوف تصرف مالا، وتتوتّر، وتنتظر ثماني سنوات وتستمرّ مع مشكلات من هذا النوع». قالت إن استماع الموسيقى بصوت مرتفع، والصياح أثناء المضاجعة، وضرب الحائط أو الأرضية بالمِطرقة، لا يمثّل أيّ شكل من أشكال الإزعاج التي تأتينا من الجيران جريمة. انسَ القانون»، قالت. «المشكلة في البرازيل أنّه ليس بإمكاننا أن نطردَ ساكنا من سكّان الملكية المشتركة، وهذا خطأ. في الأوروغواي ليس الأمر كذلك. إذا كان المواطن غير اجتماعي، فمصيرُه الشارع. أمّا في الولايات المتحدة، فالأمر أحسنُ من هذا. هناك، يمكنك أن تمنع شخصا من اقتناء شقّة في عمارتك. أتذكر نيكْسونْ؟ عندما أراد أن ينتقل إلى عمارة من عمارات مانْهاتن، حصل على (لا) في وجهه. لم يكن أيّ ساكن من سكّان تلك العمارة يريد أن يرى الصحافي وفضيحة ووتَرْغيتْ في الرصيف المقابل. الأمر هنا مختلف. تجنّب الصراع، بأيّ ثمن».

الآن باتت تؤكّد عكس ذلك. بل أظنّ أنّها صارت تقلّل من المُشكِل. تقول إنّنا قد بلغنا نقطة حسّاسة، وعلينا أن نتعاقد مع محام يهتمُّ بالأمر. وإنّها تعرف محترفا له مؤهّلات جيدة. وإنه، ينبغي، إنْ تفضلتُ، ألا أتخذ أيّ إجراء وأقسم لها إنّني لن أقوم بأيّ شيء.

استمعت لكل ذلك في صمت، وأنا أحاول أن أهدّئ نفسي.

بعد ذلك، وأنا أشاهد على التلفاز صور المُدرّسين يتلقّون طلقات الرصاص المطاطي في مواجهاتهم مع الشرطة، توجّهتْ مارتا وهيلينا إلى الحاسوب وقامتا بتحضير عدّة مناشير وطبعها تتعلّق باختفاء غالا. كان واضحا أنّه لم تصدّق أيّ واحدة منهما روايتي، وأن الغرض من تلك الدردشة التقنية كان شلّ حركتي، ليس إلا.

حين خرجَت مع ابنتها لتوزّع الملصقات في أرجاء الحيّ، كانت عينا مارتا مزرقّتَين، وطرف أنفِها كأنّه أنف مهرّج. سوف تبكي الليل كلّه إن لم تتناول حبوب التنويم.

أمّا أنا، فلم أكن أفكّر إلّا في الانتقام.



4

«**اختفت قطّة. اسمُها غالا**. شعرها أرْقش تتخلّله بقع بيضاء، سوداء وبُنّية. إنّها قطّة عجوز وتحتاج عناية خاصّة. من يعرف عنها أيّ شيء، يمكنه الاتصال بالرقم 99567 87 87. لدينا مكافأة».

شعرتُ بنخس من الحزن وأنا ألاحظ صورة قطّتنا في الإعلان الذي ألصقته مارتا في بهو العمارة. كنتُ في انتظار فْرانْسيسْكو، الذي ذهب إلى شقّته، قرب المرآب، ليبحث عن رقم هاتف صديقه البنَّاء كي يصلح سقف مطبخي، عندما لاحظتُ اللّصيقة المرتجلة حيث كُتب «إيغور ـ شقّة 605» وقد شُدّت إلى مجموعة من المفاتيح المتدلّية من لوْح قرب المُلصق الذي يعلن عن اختفاء غالا. كدت لا أصدّق تلك الفرصة، ودون تردّد، دسستُها في جيبي.

عندما عاد فْرانْسيسْكو يحمل رقم هاتف البنّاء، كنتُ في حالة كبيرة من الاضطراب حتّى إنّني لم أستطع أن أسمع ما كان يقوله لي. تخلّصتُ منه بسرعة وركضتُ نحو القفّال في زاوية الشارع ليصنع لي نسخة من مفاتيح شقّة السيّد إبْسيلونْ.

ومع أنّني كنتُ متأخّرا عن اجتماع لجنة الإضراب، فقد حرصتُ على أن أعود إلى العمارة. دخلتُ عبر المرآب ومن هناك ناديتُ فْرانْسيسْكو عبر جهاز الاتصال الداخلي.

ـ هناك دخان غريب عندي هنا. قلتُ.

وبينما ينزلُ، صعدتُ حتّى بلغتُ البوّابة وتركت مجموعة المفاتيح في المكان نفسه حيث وجدتُها، دون أن يكون أحد شاهدا على جريمتي الصغيرة.

بعد بضع دقائق، كنت قد التحقتُ باجتماع الأساتذة. كانت لقاءاتنا عادة ما تجري في الملعب الرياضيّ المتعدّد التخصّصات، والمغطّى بصفائح من الأسيستوس تضاعفُ الصخب أثناء عواصف الصيف المتكرّرة وتعكس المطر، لتخلق ما يشبه جحيما من الأصوات. كنتُ أشعر بالدوخة نتيجة الضجيج، خصوصا أنّه يومئذٍ كان يبدو أنّ الحدث يجري وَفق إيقاع متواتر. كأنّه مقابلة مسموعة من مقابلات تنس الطاولة. يتكلّم بعض الأساتذة، فيردّ عليهم آخرون. هؤلاء في المدرّجات، وأولئك في الملعب. وآخرون، يشجّعون. جرى حديث عن جلسة عامّة في الجمعية التشريعية، وعن الحاجة إلى عدم تسليم نقط الفصل إلى التلاميذ، كشكل من أشكال الضغط على الحكومة. كانوا يطالبون بزيادة في قيمة الأجور قدرها 75 في المئة. لم أكن قادرا على متابعة النقاش. كلّ اهتمامي كان مركزا على أطراف أصابعي، التي كنت ألمس بوساطتها، داخل جيب سروالي، أسنان المفاتيح التي نسختُها من فوري.

تلك المفاتيح -من النزاهة أن أعترف بذلك- كانت تحلّق بي عاليا، أعلى من صفائح الأسيستوس، وأعلى من السحب. بوساطتها، كان بإمكاني أن أكتشف أسرار السيّد إبْسيلونْ. وأكشف عن نُقط ضعفه، وتملّصه الضريبي، ورغباته الغامضة. وطبعا، أن أعرف ما فعله بقطّتي. مَن يدري، ربّما تكون غالا قد قُطّعتْ شرائح ووُضِعتْ

داخل ثلاجته؟ أو ربّما يحتفظ بها رهينة داخل قفص من الأقفاص؟ ربّما أستطيع أن أحرّرها وأضع حدّا لمعاناة مارتا. وقد أستطيع القيام بأكثر من هذا. لكن، قبل ذلك، سوف أدعك وجهه على الأرض حتّى أنتزع أنفه. وسأقتلع أسنانه. وسأكسر أصابعه. بعد ذلك فقط، سأقوم بالباقي. أقطع حنجرته. أو أخنقه بكيس من البلاستيك.

هكذا بدأتُ أخطّط لقتل السيّد إبسيلونْ. طبعاً، لم أكن أذهب بعيدا في ذلك حتّى أتصوّر الجزء اللوجستي للجريمة، بل كنتُ فقط أحلم مستيقظا كمَن يشعل التلفاز ليتفرّج على فيلم بوليسي جيّد، فأشعر براحة كبيرة. اليوم، لا أشعر بأيّ خجل من الاعتراف برغباتي في القتل. في الحقيقة، من الجهل التفكيرُ في أنّ هذا النوع من المتعة ينطوي على شيء مرضي. وأمّا الأبرياء الذي يريحون رؤوسهم ليلا فوق الوسادات، ويرون أحلام العادلين، فمخطئون حين يفكّرون أن الإنسان الذي يحقدُ يعيشُ تعيسا. إنّ الحقد، في الحقيقة، صورة لا تختلف عن أيّ صورة أخرى من صور التسلية. وأمام حياة عادية، تخلو من الحماسة، فإنّ حقدا مندفعا يضمن لنا مشاعر قوية. من جهتي، أرى أنّه من الأفضل أن يحقد المرء على ألا يشعر بأيّ شيء.

«تعالَ، تعالَ»، قال الأساتذة يومئذٍ عندما انفضّ الاجتماع. كانوا يريدونني أن أنضمَّ إلى لجنة إعداد اللافتات التي سوف تُرفع أثناء المظاهرات في الشارع، لكنّي كنتُ أشعر أنني أقوى بكثير على أن أخطّ، بأقلام ملوّنة مُتعَبة جلبوها من قاعات التعليم الأوّليّ، جُملاً من قبيل «**أستاذ من دون مسدس/ مدرسة من دون مستقبل، أو حوِّلوا ميزانية الرشوة إلى قطاع التربية**» على أوارق كرتون رقيقة

عادية نجلبها من بيوتنا. لم أعد أرغب في إمكانية أن أتمرّغ في وَحلِ الروتين. كانت فكرةُ الترقّب والانتظار هي التي تبدو لي مُغرية.

عدتُ باكرا إلى البيت وبقيت منتبها أترصّد ما يصدر عن السيّد إبْسيلونْ من أصوات.

ليلتَها كانت مارتا تقوم بالمداومة في المستشفى. بعد الحمّام، حضّرتُ عشاء خفيفا، ارتديتُ منامتي وذهبتُ لأضطجع. كان صوت الثلاجة، الصامت والمسترسل، يمتزجُ بتنفُّسي. هناك في الأعلى، كان الرجل يمارسُ النكاح. صيحاتُ صديقته تمزّق صمت الفجر. والمفتاح دائما في جيبي. يلمع في الظلام، كأنه وعد بالحياة.

مضت الأيام الموالية بطيئة، صاخبة، يملؤها انتظارٌ طويل. كانت يدا السيّد إبْسيلونْ تبدوان كأنّ بهما ثقوبا، إذ لا تكفّ الأشياء عن السقوط في الطابق العُلويّ، باشْ، باوْ، بْلينْ، لا تكفّ عن السقوط، كْراشْ، كلينْغْ، فتنكسر، وأحيانا تطيرُ فوق الجدران، بْلينْكْ، بوكْ، كافْ. لكن، يوم الخميس، وأنا أرمي القمامة في حاويات المرآب، سمعت عدُوّي يطلب من فْرانْسيسْكو أن يحتفظ بمراسلاته في الأسبوع الموالي، إذ إنّه سيذهب تلك الظهيرة في سفر إلى سانْتا كاتارينا.

من البيت، تابعتُ أصوات خطواته. كْلامْ، بابٌ يُصفقُ. تْريكْتْريكْ، المفتاحُ يدور في القفل. عندما رأيتُ أخيرا السيّد إبْسيلونْ، عبر نافذة الصالة، وهو يمشي باتجاه محطّة سيّارات الأجرة في زاوية الشارع يحمل حقيبة يدوية صغيرة، صعدتُ حتّى بلغتُ شقّته، ثم فتحتُ الباب ودخلتُ.

5

غريبٌ أن نقتحمَ بيتَ أحد يُفترض أنّ له سلطةً علينا. كان لا بدّ من ملاحظة هشاشة السيّد إبْسيلونْ وما أتمتعُ به من أفضليّة كبيرة عليه. إن كنتُ أنا هو الضحية هناك في الطابق السفلي، فإنّ سلطتي تزدادُ في الطابق العُلويّ. مشيتُ في الشقّة وأنا أشعر بجاذبية تلك القوة. وعند كلّ خطوة، كنت أصير مَلِكاً أكثر من السابق. ملكاً مطلق السلطة ومستبدّا. مجنونا وأنا أنتظر جاري بهدوء، خلف الباب، أحمل سلاحا مفلولا أو قاطعاً، ربّما فأسا، لأباغته بضربة على الرأس، ثم أشقّه شقّا من أعلى إلى أسفل قبل أن يصيح أنقذوني.

بحثتُ عن قطّتي في كلّ دولاب وخزانة، أناديها تشْتشْتس، دون أمل، تشْتشْتس، وألاحظ في الوقت ذاته أنّ السيّد إبْسيلونْ لا يملك سوى قطع أثاث جديدة، تشْتشْتس، ربّما لأنّه طلّق زوجته مؤخّرا أو ربّما لأنه شخص غريب الأطوار، مُدلّل، من أولئك الذين لا يتركون بيوت أمهاتهم إلا في سنّ الأربعين، أو ربّما بعد ذلك بكثير. لماذا كان ذلك الأمر يثير غضبي؟ على جدار الغرفة لوحة زيتية تمثّل فرْجا ذا شكل ضخم، لا زغب فيه تقريبا، مبتلّا، أحمر قانياً ولحيما كأنّه قطعة ساشيمي. من الممكن أنّ السيّد إبْسيلونْ يعدُّ ذلك عملا فنّياً. أمّا أنا، فيبدو رسالة حقد موجّهة إلى النساء. من يستطيع اختزال الأنثى في فرْج إن لم يكن شخصاً يكره النساء؟ أو ربما شخص منحرف؟ إن كان السيد إبْسيلونْ يعرض على جدران بيته رغباته الوحشية، فما الذي يخبّئه في أرشيفه الإلكتروني؟

حفّزتني تلك الفكرة المفاجئة في العثور على مادة جيدة أساوم بها السيّد إبْسيلونْ، وأجبره على أن يعيد لي قطّتي ويعيش إلى الأبد في هدوء كهدوء الدّير، فقرّرت الشروع في تفتيش مكتبه. ففي الحاسوب نعثر على أسرار أيّ شخص. إيمايلات مـ سيئة لصاحبها. تدليس ضدّ الدائنين. غشّ في وجبات الأكل المدرسية. تدليس ضدّ مؤسّسة الضمان الاجتماعي. زيارة مواقع دعارة الأطفال. صور إباحية. أتريد أن أبلغ عنك، سيّد إبْسيلونْ؟ لن أكتفيَ بالاتصال بالشرطة، بل سأذهب إلى عملك. وسأتحدّث مع أفراد عائلتك. واحدا واحدا. سأعرض أحشاءك دون شفقة ولا رحمة، مثل جزّار في مسْلخ. وبعد ذلك، سأزوّد الصحفيّين، فتصبح الصحافة هي مشنقة إعدامك. فهلّا أخبرتني أين هي قطّتي؟ هل ستضع بساطاً فوق أرضية شقّتك وتمشي مثل القطط ما بقي من أيام عمرك؟ لا أحد ينجو من تفتيش دقيق في سجلّ إبحاره عبر الإنترنت، قلتُ مع نفسي.

المشكلة أنّ السيّد إبْسيلونْ وضع رمز حماية يمنعني من ولوج الحاسوب. لكن جوارير المكتب كانت مفتوحة، وفي أحدها وجدتُ مسدسا من نوع «غلوك». هناك انتبهتُ إلى الحجم الحقيقيّ لعدوّي. فبينما كان غضبي في أوْجه يصنعُ استِهامات قتْل، وأنا أسرق مفتاح شقّته كي أدخل وأسخر من استه الدّاخن، كان غضبُه قد دسّ في الجارور مسدسا ينتظرني. هل جئت تبحث عن قطّتك؟ انظر ها هي قطّتُك، بافْ، بافْ، بافْ، تماما وسط وجهي. قُتل أستاذٌ وهو يحاول اقتحام شقّة جاره، قد تقول الصحافة. قتلتُ دفاعا عن النفس، قد يعترف القاتل. والقضيةُ، وسط موجة الإضرابات، قد تثير زوبعة

كبيرة. إلى أيّ حدّ وصل الأساتذة، قد يستنتج المجتمع، وهو في حالة صدمة. ربّما تنشر الجرائد تحقيقات، قد أظهرُ فيها مثل مسكين آخر من المساكين، ذهب ضحية لسياسيّين فاسدين. لم يتلقَّ أجره منذ ثلاثة أشهر -قد يكتب أحد الصحفيّين- فخرج الأستاذ القتيل يبحث عمّا يسدُّ به رمقه. انظروا، أيّها الناس، كيف تعمل حكومتُنا على إنزال طبقتنا إلى المستوى البروليتاري، قد تردّ النقابة بذكاء. محاكمة سياسية. كلّ هيئة التدريس في سلالم المحكمة، تطالب بالإنصاف. تمّت تبرئة المتّهم نظرا لنقص الأدلة. فهل يمكن أن يجعلوا منّي بطلا؟ أستاذ جائع يموت سدًى؟ حتّى لو برَّؤوا ساحته، فمن المؤكّد أنّ السيّد إبْسيلونْ لن يستطيع أن يمشيَ في الشارع، دون أن يتعرّض للسبّ والشتم. إنه عدو التعليم رقم واحد في البرازيل، قد يقول بعضهم، وهم يشهرون أصابعهم في وجهه. الرجل الذي يقتل الأساتذة، قد يكون ذلك هو اسمُه الجديد. ضحكتُ عالياً وأنا أفكّر في ذلك، بينما كنتُ أتملّى البريق المعدنيّ المنبعث من السلاح في يدي. سحرتْني فعاليةُ شكله الجميل. فلا غرابة، إذن، أن نصبحَ قتلة في كثير من الأحيان، فكّرتُ. وبكلّ سهولة. في سنّ الثانيةَ عشرة، وفي يدنا سلاح كهذا، نكون قد أصبحنا قادرين على المداهمة والقتل. فلا شيء أسهل من الضغط على الزناد. حتّى قبل أن تفكّر في الأمر، بافْ. ها قد قَتَلْتَ. ثم تفكّرُ بعد ذلك. قرب جثّة هامدة. هكذا تضيع حياة المرء، استنتجتُ، وأنا أضعُ المسدّس في جيبي.

في دولاب الغرفة، فحصتُ حذاء السيّد إبْسيلونْ فلاحظتُ أنّني لم أكن مخطئا. مباشرة بعد أن جاء إلى شقّته الجديدة، تخيّلت، وأنا

أدرسُ خطواته، أنه لم يكن أستاذا. فحدّثْتُ مارتا في الموضوع. نحن، في هيئة التدريس، نستعملُ أحذية رياضية وأحذية موكاسين عادية ذات نعال بلاستيكية، لا تملك من القوة ما تزعج به حتّى الصراصير. انتعلتُ إحدى جزماته. كانت ثقيلة لكبر حجمها. رأس. كعب. كانت ترقص وهي في قدميّ الصغيرتَين. تيكْ. تيكْ. تيتيكْ. رأس. كعب. حذاء حقيقيّ. نعل خشبيّ. بهذا النعل في رجليّ، يمكنني أنا -أيضا- أن أفعل تيكْ تيتيكْ حتّى فوق الزّفت.

خفقتُ النعل عبر الردهة وأنا أفكّر أنّ رغبة السيد إبْسيلونْ في إزعاجي هي الشيء الوحيد الذي كان يمنعه من وضع بساط فوق الأرضية.

بعد أن تبوّلتُ دون عجلة من أمري، فتّشتُ دولاب الحمّام. أدوية مضادة للفطريات، والعرق، والاكتئاب، والقشرة، وطبقات البكتيريا. لم أكن أعرف ما أبحث عنه بالضبط، لكنّي تابعت أفتحُ القوارير، أشْتمُّ، أتحسّسُ، وفي تلك اللحظة بالضبط سمعتُ صرير المفتاح وهو يدور في قُفل الباب الرئيس.

لم أجد وقتا إلّا لأختبئ في فتحة بين باب الحمّام والجدار. كان هنالك ثوب حمّام معلّق فحال دون أن تنعكس صورتي كلّها في المرآة، التي كنتُ أستطيع انطلاقاً منها رؤية الرواق. هل يكون دخيلا آخرَ؟ أم أنّه السيّد إبْسيلونْ عاد إلى البيت؟

بدأ قلبي يخفق بسرعة. حبستُ أنفاسي وتقيّأتُ على قدميّ.

6

صمتٌ متواطئ كان يلفّ المكان. بقيتُ خلف الباب، جامدا جائشَ النّفس من مرارة قيئي. منتبهاً إلى تحرّكات السيّد إبْسيلونْ، أخرجتُ المسدّس من جيبي، وأنا أقول مع نفسي إنّ الأمر يتعلّق بفعل احترازيّ لا غير. كنتُ ساذجا مع ذاتي. اليوم أعرف أنّ سلاحا ما يكتسي حياته الخاصّة وهو بين يدينا. تصميمُه أو ما يعادل ذلك يثير في أنفسنا هيجان رغبة جامحة في الاعتداء. جنوداً كنّا أو إرهابيّين، رجال شرطة أو جيرانا مسالمين، لا يهمُّ، ما إن نحمل سلاحاً حتّى نصير قنابل موقوتة. بل أسوأ من ذلك: نحن هم الجزء المعطوب، المشكلة التقنية التي تعتري ذلك المسدس الذي نُشهره. صلّيْتُ حتى يكون حضور جاري هناك فقط من أجل البحث بسرعة عن شيء نسيه، وأن يغادر الشقّة بسرعة، ليُخلّصني بذلك من ضرورة أن أرشقَه بالرصاص. لكن، لماذا يغيب الضجيج، مع أنّه رجل كثير الصخب؟ فهل يكون الدخيل شخصا آخر؟ أم أنّ السيّد إبْسيلونْ رأى مفتاحي في الباب واتصل بالشرطة؟ تخيّلتُنا معا نحن الاثنين أمام المفوّض، نقدّم له الشروحات. لم أقتحم الشقّة. جئتُ بعد أن تلقّيت دعوة، قد أقول. قرعتُ الجرس. هذا كذب، قد يردّ هو. قد تكون كلمتي مقابل كلمته. تخيّلتُني أخرجُ منطلقا كالسهم من خنْدقي، أشقّ الصمت، أرمي وأصرخ، ثم أنفجر بعد ذلك، لأنسف معي الشقّة وكلّ العمارة.

لم أرَ صورة السيّد إبْسيلونْ منعكسة في المرآة إلا عندما مرّ ليستعمل باب الحمّام كي يرْطمني بالحائط. سحبتُ البساط الذي

كان يطؤه، لكن، قبل ذلك، تعرضتُ للسّحق وسقطتُ، وحين سقطتُ شعرت بيدي تطْبق على السلاح بقوة. بدا لي دويّ الرصاصة، التي أصابت ركبته، أقلّ إثارة من الصوت الذي أحدثه اصطدامُ رأسه بحافّة حوض الحمّام. صوتٌ من دون صدى، صوتٌ عضويّ، مثل صوت غصن متين ينكسر بفعل العاصفة.

نهضتُ دائخا، وإصبعي على الزناد. بدا لي أنّه يستحيل ألّا أكمل المهمّة، وأنا أشعر أنّ المسدّس يلمع في حوزتي. بدا لي المسدّس من فرط طبيعته، وشدّة كماله وتراصّه، أنيقا وفعّالا، كما لو أنّه امتداد طبيعيّ ليديّ. وضعته على الأرض، مرعوبا من قوّته الخبيثة. ظلّ السيّد إبْسيلونْ جامدا، ساقطا بين حوض الحمّام والمجلى. عيناه الساكنتان تواجهاني كما لو أنّهما تريدان أن تقفزا من محجرَيهما.

ـ لم يكن ذلك قصدي. قلتُ وأنا أرى الجرح في رجله.

لا جواب.

ـ إنني أبحث عن قطّتي. شرحتُ له. أمّا السلاحُ، فهو سلاحُك.

لا شيء. لا يصدر عنه أيّ ردّ فعل، كما لو أنّه في حالة صدمة. بدأ خيط دم ينطفُ من أذنه. حينئذٍ انتبهتُ إلى أن الجزء الأيسر من جمجمته كان غائرا بعض الشيء. انحنيتُ إلى جانبه وجسستُ نبضَه. صفر، لا إشارة تدلّ على حياته. شعرتُ لحظتَها أنّني بدوري كدتُ أتعرّض لسكتة قلبية. لم أضغط حتّى على الزناد عن قصد، ووقع ما وقع.

بدأت أمشي في البيت، دائخا، فتعثّرتُ بحقيبته عند الباب، ثم ارتميتُ على الأريكة، أحاولُ ترتيب أفكاري. من الناحية التقنية الصرفة، أنا قاتل، فكّرتُ، وأنا أنظرُ إلى حذائي المتّسخ بالقيء. طبعا، سرعان ما سيعلم أحدهم بالأمر. ربّما كان السيّد إبْسيلونْ يستعدّ للسفر ليلتحق بصديقته. إن لم تنتبه هي إلى غيابه، فسينتبه الحارس إلى ذلك. أو مُنظّفة البيت. بل هناك ما هو أفظع: بعد يومين أو ثلاثة أيام، ستبدأ رائحة قوية بالانبعاث من جسده وتثير انتباه الجيران. قد يخلعون الباب ويجدونه في الحمّام. فمن ذا الذي سيصدّق روايتي؟ كيف أفسّر اقتحام البيت؟ والطلقة الرصاصية؟

رنّ الهاتف الخلويّ فزجّ بي في حالة من القلق. إنّها مارتا، فكّرتُ، وأنا أريد أن أغادر المكان على عَجَلٍ. حين تفحّصت الجهاز، لاحظتُ أنّه لم يكن هناك أيّ اتصال.

جريتُ حتّى بلغت الحمّام. تمدّدت بركةُ الدم حتّى وصلت إلى المجلى وعانقت جفنة المرحاض. عندما دنوتُ من الجسد لألتقطَ الهاتف الذي كان يرنّ في جيب معطف السيّد إبْسيلونْ، لطّختُ بالدم ساق سروالي وكُمَّي قميصي.

بقيت مدّة لحظة من الزمن، جامداً، لا أعرف ما أفعلُ بهاتف السيّد إبْسيلونْ الذي كان يرتعشُ بين يديّ. في الجهة الأخرى من الخطّ، تخلّى الشخص عن المكالمة، لكنّه سرعان ما بعث بنصّ رسالة قصيرة. كان اسمُها كْلاوْدْيا. «في أيّ ساعة سوف تصل؟».

حينئذٍ، عندما ظننتُ أنّه سيغمى عليّ، تملّكني هدوء غريب، كما

لو أنّ شيئا ما انفصل فجأة عن كياني وشكّل وعياً آخرَ، هو وعيي أيضا، لكنّه أكثر وحشية ودموية، أكثر فظاعة وخبثا، جعل منّي مفترسا هائجا. «أجب: لا أعرف»، أمر الوحشي بداخلي، ودفعني لأطيعَه بانضباط.

- لا أعرف. رقنتُ بسرعة.

ثم ظهرت رسالة جديدة على الشاشة:

لكن في أيّ ساعة ستقلع طائرتك؟

«أجبْ وقُل إن لديك مشكلات وإنّك قد ألغيت الرحلة. قل إنّك سوف تتّصل متى تيسّر لك ذلك وأطفئ الهاتف».

وهذا ما فعلتُ. من تكون كْلاوْدْيا يا ترى؟ الصديقة؟ زميلة في العمل؟

قبل أن أبحث عن خرق تجْفيف ومواد تنْظيف، خلعتُ ملابسي وألقيتُ بها في حوض الحمّام، ثم أطلقت صنبور الماء.

في فضاء الخدمات، عندما بدأتُ أنظّف حذائي، خطر ببالي أنّني ربّما أكون مخطئا، وأنّ السيّد إبْسيلونْ ربّما لا يزال حيّا. عدتُ إلى الحمّام عارياً، وجواربي مبلّلة. كان الماء قد فاض عن الحوض. والدم أصبح الآن في كلّ مكان.

«أولا، اقطع الماء. ثانيا، تأكّد من نبض الرجل»، كنتُ أستجيبُ لأوامري بكلّ نجاعة.

بعد أن جففتُ الأرضية، نزعتُ الملابس عن السيّد إبْسيلونْ،

نشفتُ جسده ولففتُه في ملاءة جافّة. فكّرتُ في وضعه تحت السرير حتّى أرى ما أفعل كي أبعدَه نهائيا، لكن هناك يمكن للمُنظّفة أن تجده بسهولة. من الأحسن لك أن تبدأ بوضع لائحة بالتفاصيل كلّها. في المكتب، أخذتُ ورقة وسجّلتُ:

«عليك أن تعرف من هي كْلاوْدْيا».

«عليك أن تعرف متى تأتي المُنظّفة».

تركتُ اللائحة فوق طاولة المكتب وعدتُ أبحث عن مكان أضعُ فيه جسد السيّد إبْسيلونْ. بدا لي دولاب الردهة مكانا ملائما تماما. احتجتُ فقط لأفرغه وأزيل منه بعض الرفوف. وضعتُه بشكل مريح، ولمّا كان هناك فضاء زائد، رصصتُ إلى جانبه السلاح والحقيبة التي تركها هو وسط الصالة. ثم أوصدتُ الباب، ووضعتُ المفتاح قُرب هاتفَينا الخلويَّين.

بعد ذلك، أخذتُ أنظّف الحمّام. استعملتُ فرشاة أسنان السيّد إبْسيلونْ لأفرك ما بين قطع الزليج قبل أن أسجّل في لائحتي:

«اشترِ سائل الحامض الطّرطيري».

أضفْتُ ملابسي المبلّلة إلى ملابس السيّد إبْسيلونْ، ثم خرق التجفيف وما استعملتُه من فُوَطٍ في التنظيف، ثم دككتُ كلّ ذلك داخل آلة الغسيل، مع كثير من مسحوق الصابون. لم أفهم بسهولة كيف أشغل برنامج التنظيف، فالآلة عصرية وأكثر حداثة من آلتي، لكن لا شيء يقف حاجزا أمام رجل مصمّم. ثم إنّني كنستُ وجفّفت

حذائي بعناية كبيرة. ثم أضفتُ إلى اللائحة:

«أخرج الملابس من آلة الغسيل».

«انشر الملابس، واكْوِها واحتفظ بالملاءات والفُوَط المستعملة في العملية».

في الأخير، أخذتُ دُشّا، ثم انتعلتُ حذائي وهو لا يزال مبلّلا. اخترتُ سروال جينز وقميصا أصفر من دولاب السيّد إبْسيلونْ. كان الرجلُ أكبرَ منّي، وملابسُه فضفاضةٌ بعض الشيء على جسدي، لكن ليست حدَّ إثارة الانتباه. كان حزامٌ كافيا لحلّ المشكل. في المرآة، وجدتُ أنّ القميص كان مثيرًا للانتباه بعض الشيء، فغيّرتُه بآخر له لون السماد.

كانت الساعة تشير إلى السابعة مساء عندما تركتُ المكان، أحمل لائحتي وهاتف السيّد إبْسيلونْ الخلويّ. سرعان ما أوصدتُ الباب، ثم انحرفتُ حتّى لا يراني أحد.

نزلتُ الأدراج، دائخا بعض الشيء، ثم ولجتُ إلى الشقّة عبر المطبخ. ما إن أوصدتُ الباب، حتّى بدأ الجرْس يرنّ. لكنّ صوت مواء القطّة الواضح هو ما جعل الدمَ يتجمّد في عروقي.

التقيتُ الحارس فرانْسيسْكو، وأنا أفتح باب الصالة، وقطّتي بين أحضانه. «لقد ظهرت هنا في البيت»، قال، وهو يمدُّ ذراعيه لآخذها منه.

7

- ماذا حدث؟ سأل فْرانْسيسْكو، وهو يحدجني بنظرة ملؤها الدهشة.

لم أعرف بما أجيبه. شعرت برأسي يغلي فاستعصى عليّ الفهمُ. ماذا كان يقصد؟ هل سمع طلقة المسدس؟ هل اشتمّ رائحة القيء؟ هل كان مرتابا من شيء معيّن؟

- وجهك، يا سيدي. تابع قوله، وهو يمدّ يده اليمنى نحو جبهتي.

تراجعتُ قليلا. «قل إنّك قد سقطت في الحمّام»، أمرني الوحش بداخلي.

- سقطتُ في الحمّام. أجبتُه.

«لا تخُض في التفاصيل. ابحث عن محفظتك وقدّم له بقشيشا. فالحرّاس الكاتمون الأسرارَ حراسٌ فاسدون». استجبتُ لأوامري وتكرّمتُ عليه. قبل أن أضع لغالا حصّتها من الماء والطعام، ذهبتُ لأنظر إلى نفسي في المرآة فلاحظتُ ما خلّفَته من أضرار في وجهي ضرباتُ الباب التي وجّهها إليّ السيّد إبْسيلونْ. قد تصير الكدمات بنفسجية، بكلّ تأكيد. وربّما تنتفخ.

كنتُ أغادر المطبخ، عندما رأيت ورقة ألصقت فوق الثلاجة: «طلبت منّي هيلينا أن أنام معها في بيتها هذه الليلة، سأساعدها في القيام بأشغالها. تجد حساء اليقطين في المُجَمِّد».

لم يكن أمرا هيّنا على مارتا أن تتقبّل حالة هيلينا السحاقية، ولم نكن نزور إلا لماما شقّتها حيث تعيش مع صديقتها بارْبارا، صحافيّةٌ بدينة بأهداب صغيرة ونظّارتين كبيرتين، ترتدي دائما ملابس مثيرة للانتباه. لكنّي لم أتذكّر حتّى هذا الأمر في تلك اللحظة. كنتُ منشغلا أيّما انشغالٍ بفكرة جثّة فوق سقف بيتي، ولم أشكّ حتّى في أن الأسوأ لم يحدث بعدُ. حتى بعد أن اتصلتُ بهيلينا وأخبرتني بأن مارتا ذهبت لتنام قبل التاسعة، لم أشكّ في أيّ شيء. ظللتُ أذرعُ الصالة جيئة وذهابا، وأنا أشعر أنّ جسدي يرتجّ بتشنّجات، كما لو أنّني أتلقّى شحنات كهربائية. «قُم بما ينبغي القيامُ به»، كان يقول لي الصوتُ بداخلي. ذهبت إلى المطبخ وحضّرتُ قهوة قوية. بعد ذلك، جلست أمام الحاسوب وشرعت في البحث. لا أدري كم قضيتُ من الوقت أُبحر عبر مواقع العالم أجري مثل كلب يلهث وراء فكرة صائبة. كثير من الناس يظنّون أن سلب حياة إنسان هي الجزء الأكثر تعقيدا في جريمة ما. أستطيع أن أقول الآن، انطلاقا من تجربتي الخاصّة، أن فِعْل القتل هو أهون المشكلات في جريمة قتل معيّنة. لكنّ أصعب ما في الأمر هو إخفاء الجثّة. هناك من المجرمين مَن يقطعون ضحاياهم إربا إربا، ويطعمون الخنازير بفتات اللحم البشري. المشكلة، في حالتي، هي الخنازير. كيف لي بها؟ كيف يمكنني أن أصل وأنا أحمل سطلا يقطر دما إلى حظيرة من حظائر الخنازير؟ ويَعد بعض القتلة رميَ الجثّة في البحر حلّا مناسبا. بالنسبة لي، يُشكّل البحر، في حدّ ذاته، حاجزا. أحجام هائلة من المياه، أمواج عاتية، أشعر بالرعب من العالم السائل. وفوق ذلك، مَن سيقود المركب؟ الأمر المثالي، كما قرأتُ في موقع لفقهاء القانون، هو استعمال قانون أقلّ مجهود. اترك الميت

في مكان حار ورطب، وفي غضون أسبوعين سوف تلتهمه الديدان وأشياء أخرى أسوأ منها. بهذا المعنى، يُعد البرازيل مُلتهما حقيقيا للجثث. وجدتُ الفكرة قابلة للتنفيذ. يمكنني، دون عناء، أن أحمل الجثّة إلى جبال كانتاريرا، مكانٌ دأبت على ممارسة رياضة المشي فيه أثناء فترة شبابي. لم يكن بعيدا جدّا، وبه غابات يمكن إخفاء الحفرة فيها.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة عندما صعدتُ من جديد إلى شقّة السيّد إبْسيلونْ. حجمُ جسده، لاحظتُ، وأنا أسحبه من الدولاب وأضعه في حوض الحمّام، لا تتّسع له أكبر حقيبة وجدتُها في خزانة ملابسه.

«قطِّعْه إلى نصفَين»، قال لي أسوأ جزء في ذاتي.

كانت عضلاتُه قد بدأت تتمدّد وأنا بحاجة لأكون سريعا. الخطوة الموالية: الحصول على أدوات.

تذكّرتُ محلّا يظلّ مفتوحا 24 ساعة في مارْجينال. نزلتُ إلى شقّتي، أخذت مفاتيح السيّارة وفي أقلَّ من عشرين دقيقة كنتُ أتجوّل بين رفوف تعجّ بأنواع موادّ البناء كلّها. طالما كرهتُ هذا النوع من المتاجر التي تعرض، في واجهات مرتبة، كلَّ قُبح مُدُننا: أسلاكاً، نوافذ من الألومينيوم، صهاريج ماء، أعمدة، قطعا من الإسمنت المسلّح، أنابيب من البلاستيك وخيوطاً كهربائية. اقتنيتُ أكياسا بلاستيكية من سعة ألف لتر، ورفشا، ومنشارا يدويّا صغيرا، ومئزرا، وحبل غسيل، وقفّازَين، وواقي وجهٍ من الأكْريليك، ومنتوجا مصنوعا من الأمونْيا.

وأنا أمر عند صندوق الأداء، انتبهتُ إلى أنّني لم أكن أشعر حتى بقليل من الخوف. بل، على العكس من ذلك، كنت مرتاحا، أكاد أكون مستعدّا، كما لو أنني أؤدّي دور القاتل الذي يقطّع ضحيّته إرْبا إرْبا ثم يدفنها.

كانت لحظات من العمل البدنيّ المكثّف، وقد أسعفتني قليلا دروس التشريح التي تابعتُها في مرحلة الكلّية. استعملتُ سكين المطبخ والسكين الكهربائية لتقطع الأجزاء الأقلّ مقاومة، ثم المنشار اليدوي لتقطع العظام والعراقيب.

بعد ذلك، غسلت الأدوات ووضعتها في كيس من البلاستيك لأبعدها. كما نظّفتُ الحمام بمحلول الأمونياك، واغتنمت الفرصة هذه المرة لأزيل بقايا الدم التي التصقت بين ثنايا الأرضية.

إنّ امتياز السكن في عمارة فقيرة، لا تشملُ وسائل أمنية، هو أنّه لا أحد يصوّرك وأنت تلج المصعد.

في الساعة الثانية وعشرين دقيقة، كنت في سيّارتي، بعد أن أخذت حمّاما، متوجّها إلى جبال كانتاريريا، مع جاري الذي وضعتُه في حقيبتَين داخل صندوق الأمتعة. في الحقيبة الصغيرة، وضعتُ الرأس والرِّجلَين، وفي الكبيرة، الجذع.

«شغّل الأضواء، أشرْ حين تُغيّر الممرّ، راقب السرعة، لا تعطِ الشرطة ذريعة لتعترض طريقك»، كان يقولُ الوحشُ بداخلي.

غادرتُ المدينة، وأخذت الطريق رقم BR116 بعد أن مررتُ

بشارع مارجينال تْيتي. قبل أن أدخل إلى دوتْرا، فتحت الزجاج وألقيتُ بأدواتي من النافذة نحو النهر. ومع المجرى المنخفض، لم يسعفني إلا أن أصلّي حتى لا تعلق أدلّة الجريمة بالأعشاب التي تنمو على الضفّة.

في شارع سيزيفْريدو فاغونديس، اضطرّتني شاحنة بيضاء كانت تسير أمامي إلى تخفيف السرعة. فقط بعد أن اختفت، دخلتُ إلى طريق المقْلع الخاصّة.

كان من عادتي أن أذهب إلى تلك الأماكن مع صديقة لي، عندما كنتُ عزباً. لم يتبقّ من ذلك المنظر غير روائح الأحراش القوية. صار المكان اليوم مليئا ببنايات فقيرة، من دون ملاط، وبه سيارات قديمة مركونة فوق الأرصفة. كنتُ أسير على مَهَل، ألاحظ تلك الطريقة الجديدة في بناء الأحياء الفقيرة، بوساطة موادّ مصنّعة، لا تَقلّ قُبحا وهشاشة عن أجزاء القصدير وقطع البلاستيك التي كانت تُستعمل فيما مضى.

فجأة، ذُعِرتُ وأنا أرى لوحات تشير إلى منتزهات وممرّات مشي في «نوكْليو إنْغوزْدادور». كلّ شيء هنالك كان مهيّئا بشكل جيد للسياحة، ولا يمكنني أن أدفن الجثّة في مكان يقوم فيه الناس بنزهة ريفية، فكّرتُ. بعدما صعدتُ عبر منحدر ضيّق من الحصى، وجدتُ مكانا كبيرا لركن السيّارات. بل كان به -أيضا- شبّاك تذاكر. فجأة، خطر ببالي أنّه ربّما يكون المنتزّه الآن مراقبا بوساطة الأقمار الاصطناعية. وفي تلك اللحظة بالضبط، لا بدّ أنّهم كانوا يسجّلون

كلّ تحرّكاتي عبر الطريق. طبعا، قد تكون ثمة صورٌ لسيّارتي، والتسجيلات قد تُستعمل أثناء محاكمتي.

وهناك بالضبط قمتُ بنصف دورة واتجهتُ نحو ساوْ بّاوْلو. هدّني التّعب هدّاً في دوتْرا، فاضطررتُ إلى السياقة بنوافذَ مفتوحة حتّى أحافظ على انتباهي.

عندما ركنتُ السيّارة في المرآب، كانت ساعتي اليدوية تشير إلى الرابعة صباحا. قريبا سيطلُع الفجر، وأنا لا أريد القيام بأيّ شيء في واضحة النهار. أخذتُ الحقائب وأعدتُها إلى شقّة السيّد إبْسيلونْ ثم وضعتها في دولاب الرواق. أغلقتُ كلَّ شيء، ثم نزلتُ إلى شقّتي.

في الساعة السادسة وخمسة عشر دقيقة كنتُ لا أزال مستيقظا، أدور في الفراش. ذهني لا يكفّ عن تصوّر الأسوأ. كنتُ أرى نفسي محكوما عليّ، يحيط بي قَتَلَة ساديون، وتلك الصورة كانت تحدث تشويشا في نبْضي. ولم يُهدّئ من روعي حتّى كونُ شهادتي الجامعية قد تسعفني في تجنّب تلك الزنازين غير الإنسانية في سجوننا. سوف يضعونني في زنزانة خاصّة، كنتُ أقول مع نفسي، دون أن أتصور ما قد يكون «خاصّا» في منظومة سجنية فاشلة مثل منظومة السجون البرازيلية. هل ستكون هناك فئران وصراصير تتجوّل فوق جسدي عند الفجر؟ على الأقلّ لن أكون مع المغتصبين والمضطربين نفسيّا، فكّرتُ. ولا مع المتحرّشين بالأطفال أو المجانين. فقط مع سياسيّين وفاسدين، عموما. وهذا ما نجده اليوم في سجوننا. فاسدون ومفسدون. تجّار الأموال في السوق السوداء، أصحاب اللوبيات،

مقاولون. نوّاب وبرلمانيون. مشهرون ومقاولون في ورَش البناء. هؤلاء سيكونون زملائي. هذا الاحتمالُ أصابني برغبةَ شديد في القيء. قرّرتُ أن ألجأ إلى حبوب النوم التي تستعملُها مارتا.

قبل أن أنام، تلقّيتُ مكالمة من مديرة مدرستي. «وصلتنا تعليمات جديدة من دائرة التعليم. سأكون مضطرّة لخَصم أجور الأيام التي لم يشتغل أثناءها المدرسون الذين انخرطوا في الإضراب»، قالت.

«شكرا على إخباري بذلك»، أجبتُها.

8

استغرقتُ وقتا طويلا قبل أن أدرك أنّ ذلك الألم لم يكن ألما، بل عبئا، حملا ثقيلا كنتُ أحاول أن أغمسه في مياه عَكِرة وموحلة، لكنّه يصرّ على أن يطفو على السطح؛ ليجبرني على استعمال كلّ قوّتي لأُغرقَ، من جديد، الجسمَ الميت. أمّا ذهني، حتّى وهو يغوص، وربّما يغرقَ ويكاد يموت، فلم يكن يتوقّف عن الاشتغال.

استيقظتُ من ذلك الكابوس وأنا أسمع أصواتا، دون أن أفهم ما يُقال. الخروجُ من ذلك الخمول الحُلمي، التخلّصُ من الجثّة، من الماء، الاستلقاءُ فوق السرير، الانتباهُ إلى أن هيلينا كانت هناك في الصالة المجاورة، تتحدّث مع أمّها؛ كلّ ذلك كان يجري ببطء، تماما كما تغادر الفراشة شرنقتَها. الثامنة مساء، هذا ما كانت تشير إليه الساعة. لا أكاد أصدّق أنّني نمتُ طوال النهار. ومع ذلك احتجتُ بضع دقائق في السرير حتّى تختفي الدوخة جميعها. عندئذٍ فقط نهضتُ، ثم ارتديتُ قميصا. وأنا أُنتعلُ الحذاء، لاحظت بقعة دم صغيرة قرب النعل لم تزُل تماما. أخفيتُ الحذاء تحت رزمة الأوراقَ التي لم تُصحّح بعدُ، في الجارور، ثم ذهبتُ حافيا إلى الصالة.

كانتا معا فوق الأريكة، تشربان خمرا. من المطبخ كان ينبعث ضجيج طنجرة الضغط. وبفضول، سألتاني عن غالا.

حكيتُ لهما عن زيارة فْرانْسيسْكو المفاجئة ليلة البارحة، والقطّة بين ذراعيه.

ـ وأنت تشكّ في الجار. قالت مارتا، وهي تتحاشى النظر في عينيّ كما لاحظتُ.

ـ اجلس هنا. طلبت منّي هيلينا، وهي تضرب بكفّ يدها على الأريكة حيث كانت جالسة. ماذا حدث لوجهك؟

ـ مُظاهرة الأمس. حدثَ شغبٌ، فسقطتُ.

كانت مدهشة تلك السهولة التي أكذب بها. كلّ قاتل يصبح كاذبا، هذه حقيقة. افتريتُ أشياء زائفة أخرى حول إضراب الأساتذة. ثم قلتُ معلّقا:

- سوف نتداول بشأن قيادتنا.

نهضت مارتا.

- سوف أُقدّم وجبة العشاء. أخطرتنا، قبل أن تنسحب إلى المطبخ.

سوّيتُ جلستي في الأريكة ووجّهتُ قُبلة إلى هيلينا. لحْظتَها فقط أدركتُ أنّني لا أشعر بالراحة إلى جانبها. كان واضحا أنّها تُخضعني لمراقبة دقيقة. وإضافة إلى ذلك، أصبح تنافرنا أمرا بديهيا. أيّ شخص منتبه قد يتكهّن بأن عَلاقتنا مصطنعة، وليست بيولوجية. لم أكن أنا والدها ولا هي ابنتي. وجهُها المُشعّ كان سُبّة لوجهي الشاحب. ربّما هي -أيضا- لا تشعر بالراحة إلى جانبي.

علينا أن نتحدّث. أخبرتني.

ظلّت نظراتي موجّهة نحو الأرض.

ثم تابعت:

- جئتُ لأساعدكُما.

مالٌ. ظننتُ أنّ ذلك هو الموضوع. أمرٌ روتيني. عند نهاية كلّ شهر، تتعدّى نفقاتنا حدود الدخل فنضطرّ إلى أن نستدين منها بعض المال. كنت صريحا معها:

- أفضل أن تعالجي هذا الموضوع مع والدتك.

- كلا، كلا. أجابتني. إنه قرار يهمّنا جميعا. علينا أن نتحدّث.

أثناء العشاء، لزمتُ الصمت، وأنا أفكّر أنّه بمجرّد أن أتحرّر منهما، سوف أصعد إلى شقّة السيّد إبْسيلونْ وأبحث عن مفتاح سيّارته. سوف أستعمل سيّارته الخاصّة لأتخلّص من جثّته. فكلّما قلّت الأخطار، كان الأمر أحسن.

لم تكن مارتا توجّه لي الكلام. لاحظت في تعليقاتها شيئا من الغضب تجاهي، ومع ذلك لم أشكّ في أيّ شيء.

- إنّكما لم تعودا صبيّين. علينا أن نعالج الموضوع بنضج. قالت هيلينا، عندما كنّا نحتسي القهوة.

في الأخير، لا يتعلّق الأمر بإفلاسنا المالي، حدستُ بقلق. شعرتُ أن وجهي قد شحب عندما بدأت الحديث. أول فكرة خطرت على بالي هي أنّهما معا كانتا على علم بجريمتي.

- تكلّمي يا أمي. قالت هيلينا. أم تريدينني أن أتكلّم؟

ظننتُ أنّني كنتُ على وشْك أن أتقيّأ. شعرت بدُوار في رأسي.

- لم أعد أتحمّل أكثر من هذا. قالت مارتا. لقد انتهى كلّ شيء بالنسبة لي.

وهي تمسكُ بيدي، حاولت ابنتُنا أن تتكفل بترجمة ذلك الخبر: أنا وأمّها كنّا على طريق الانفصال. انفصال لا رجعة فيه.

بقينا صامتين بضع لحظات. لم يكن ثمّة أيُّ معنى فيما كانت تقوله هيلينا، لذلك أطلقتُ قهقهة عالية. بشكل غريب، كنتُ أنا ومارتا شخصَين لا يمكن الفصل بينهما. في البيولوجيا، نسمّي هذا النوع من العَلاقات عَلاقات تعاون أولية. كنّا مثل الفطريات والطحالب، وهذا ما قلته لهما. يحتاج الواحد منّا إلى الآخر، وكلانا نستفيد من هذا الالتحام الإرادي.

- مثل أنوميّات البحر والسلطعون. قلتُ مؤكّدا.

- إنّكما لم تعودا متزوّجَين منذ مدة طويلة. ردّت هيلينا، وهي تلمح إلى أنّنا، أنا ومارتا، لم نعد نضاجع بعضنا منذ سنوات. كان شيئا مقرفا أن أتصوّر زوجتي نفسها وهي تتحدّث عن أمورنا (غير) الحميمة مع ابنتنا.

- أنتما غير سعيدَين. أكّدت هيلينا. ثم أضافت بعد ذلك عبارة «علاقة ميتة».

- أمّك غاضبة لأنّني دمرتُ سقف المطبخ. شرحتُ لها، ثم توجّهتُ، بعد ذلك، إلى مارتا مُطَمْئنا:

- سوف أصلحه، ويعود كلّ شيء كما كان من قبلُ.

نظرت بعضهما إلى بعض بتلك الطريقة التي تُزعجني كثيرا، كما لو أنّهما ترسمان دائرة عائلية، وأنا خارجها.

- لا أحد يفترق بسبب سقف مطبخ. قالت هيلينا مدعية.

حاولتُ أن أسحب يدي المشدودة إلى يدَيها، لكنّها لم تتركني لأقوم بذلك.

ومرّة أخرى، بقينا صامتِينَ نحنُ الثلاثة. بدأت مارتا تنتحب. أظنّ أنه، بشكل ما، في تلك اللحظة، تمّ ابتكارُ طريقة جديدة لإنهاء الزواج: بتدخّل من الآخرين. هيلينا هي مَن تكفلت بانفصالنا، فأعلنت عن إفلاسنا وعن استحالة استمرار عيشنا معا. قالت إنّ مارتا وأنا نستحقّ أن نعيد بناء «خطاباتنا الخاصّة». وأنّ حياتنا أكثر قيمة من روابطنا الشرعية. وأنّ الطلاق لا يعني الفشل. والدليل على هذا الأمر هو هي نفسها، «ثمرة» علاقتنا وتضحيّتنا. لولا ارتباطنا، لما كانت هي تلك المرأة السعيدة والكاملة التي صارت حينئذ. فما الذي نطلبُه أكثر من هذا دليلا على نجاح مشروع زواجنا الفاشل؟ لا وجود لأيّ فشل في هذا الأمر، كرّرَت عدّة مرّات. بل إنّه ينبغي لنا أن نكون شكورَين؛ لأنّه كم من آباء، في النهاية، يرون أبناءهم يغرقون في مستنقع المخدّرات!

لنفتح، إذن، قنينة خمر ولنحتفل بنهايتنا المجيدة، فكّرتُ دون أقول ذلك. أكثر من نهاية زواجنا، فإنّ ذلك هو ما أدهشني، تلك الطريقة الملتوية التي جرت بها كلّ الأمور. فجأة، كان كما لو أنّ مارتا وأنا لم نعد أكثر حرية، لم نعد شريكَين في المِلكية، ومتزوجَين

فاعلين، بل ملْكية وامتدادا لهيلينا، التي كانت تتصرّف معنا تارة مثل أمِّنا، وتارة مثل محامية، وتارة مثل قاضية، وتارة كما لو أنّني كنتُ مريضا، وتارة كما لو أن مارتا كانت بطلة، وتارة كما لو أننا كنا تعيسَين منذ سنوات كثيرة. كانت هي المحور، سيدة حياتنا معا، وهو ما كانت تصرُّ على تسميته «خطابات ينبغي ابتكارُها». وهو ما كانت تتصوّر أنّني ووالدتها يمكن أن نصير إن افترقنا. فهل لا يمكن أن نكون شيئا آخر غير والدَيها إن بقينا معا، حسب تقديرها الخاصّ؟

في تلك اللحظة، حتّى فكرة تحمّل عبء جثّة، عليّ أن أعترف بذلك، لم تكن تخيفني أكثر من إمكانية العيش بعيدا عن مارتا. فأيّ جثّةٍ يمكن أن تُدفن، ويطويها النسيان. لكن ما الذي أفعله بوَحدتي؟ لأجل مَن سيفوح بيتنا برائحة النظافة؟ من سيقلّم أظافري؟ ومن أجل أيّ شيء سأقتصد في الماء؟ وما العمل، لو أنهم اكتشفوا، في المستقبل، سرطانا في كبدي؟ أو في كبدها؟ من سيعتني بنا؟ كانت مارتا أكثر من زوجتي. كانت هي بيتي. توازُني النشيط. وهي إلى جانبي، كانت نتيجة كلّ القُوى الأخرى على جسدي تساوي صفرا.

شعرتُ باندفاع فاعترفت بما يعتريني من تخبّط، كتقنية لإلهائهما، علّهما تنسيان فكرةً الطلاق. فكّرتُ في أن آخذهما معاً إلى شقّة السيّد إبْسيلونْ لأشرح لهما كيف سقط وارتطمت رأسُه بحوض الحمّام، وهذا، طبعا، أمر بالغ الخطر ومهمّ، سأقول لهما. إنّ الواقع يطفحُ بالآلام، وعليها أن تتعلّما هذا الدرس. فما أهمّية خلافاتنا المتناقضة الآن وقد جعل منّي السيّد إبْسيلونْ قاتلا بالخطأ؟ أيّ أذى يصيبنا من خصوماتنا الزوجية وجثّة غضّة تقبع فقط هناك فوق رؤوسنا؟ هذا

بالضبط ما كنتُ أريد القيام به. لكن، وأنا أفكّر في الجثّة المقطعة والموضوعة في الحقيبتَين، انتبهتُ إلى أنّني قد تجاوزت نقطة الاعتراف بجريمتي. نعم، يمكن أن نعترف أننا ندعس شخصا دون أن نرغب في ذلك، وأننا نضغط على الزناد تحت تأثير انفعال قويّ، وأنّنا نهاجم الآخرين ونعتدي عليهم تحت تأثير الكحول؛ لكن أن نقطع جثّة إربا إربا ونجمّدها فتلك حكاية أخرى. لن تفهم مارتا وهيلينا موقفي، كنتُ أعرف ذلك.

– عليك أن تسمعني. ألحّت هيلينا، بعد ذلك، بينما كانت تُخرج قمصانا وسراويل داخلية من خزانة ملابسي لتضعها في حقيبة يدوية صغيرة كانت مارتا قد سلّمتها إليها.

– لا أريد أن أَحلّ ضيفا ببيتك. قلتُ محتجّا، عندما أجبرتني على الصعود إلى سيّارتها، وهي تقول إنّ بارْبارا، شريكة حياتها، كانت في انتظارنا.

– أبي، لا تعقّد الأمور. قالت ونحن نركنُ السيّارة في مرآب تلك العمارة الباذخة التي تسكن فيها.

كان من المستحيل أن أستريح في شقّتهما. فقد كان هناك شيء ما مخْبري، على درجة من النظافة لا وجود لها إلا في قاعات عمليات الجراحة. وكلّما حاولت بارْبارا أن تكون لطيفة معي، بقصّة شعرها مثل متخلّفة ذهنية، وهي تؤكّد أنّه بإمكاني أن أمكثَ ما شئت من الوقت، كان ما أودُّ فعله هو أن أغادر المكان مهرولا.

في اللّيل، وأنا في حجرة ضيوف تشبه غرفة فندق، لكثرة نظافتها

وانعدام شخصيّتها، اقتنعتُ تمام الاقتناع بأنّ الجصّ المملوء بالثقوب هو ما دفع مارتا إلى اتخاذ قرار طلب الطلاق. ثمّة أشخاصٌ يُقيّمون أكثر من اللازم النظام بقدر يفوق حجم تقييم آخرين للجنس. أو الموسيقى. كلّنا نُقدّر أكثر من اللازم شيئا ما. هي تقدّر أكثر من اللازم المال. نحن، القوانين. هو، الصورة. أنت، الأمن. نحن، الأسرة. تلك الثقوب حرّكت شيئا عميقا في نفس زوجتي. شيئا بنيويا. اتصلتُ عدة مرّات بالبيت في ذلك الفجر، وأنا أريد أن أتحدّث كثيرا كي أشرح لزوجتي أنني أُقدّر الصمت بقدر ما تُقدّر هي نظامَ العالَم. فالضجيج والفوضى سيّان، شرحت لها، وأنا أترك رسالة في المجيب الآلي. هما سيّان لأنّهما يحوّلاننا إلى شيء آخر ليس هو ذواتنا. فلا أنا قاتل، ولا أنت بمطلقة، قلتُ لها.

- كُفّ عن إزعاج أمّي. أمرتني هيلينا، حين دخلت إلى الغرفة بعد أن تركتُ الرسالة في المجيب الآلي. إنها بحاجة للهدوء وأنت كذلك.

في الصينية التي جلبتها معها، كان هناك كوب ماء وقرص دواء أزرق.

- أنا لا أحبُّ العقاقير المُنوّمة. قلتُ.

- إن لم تبدِ تعاونك، يا أبي، فلن أستطيع العناية بك وَحدي. أتفهم ماذا يعني هذا الأمر؟

استحوذ عليّ إحساس بالرعب. شعرتُ أنّني كنتُ مهدّدا بطريقة ما، مع أنّني لم أفهم كيف كان ذلك.

ابتلعتُ قرص الدواء الأزرق ونمتُ.

خلعَت هيلينا حذائي، ودثّرتني ثم طبعت قُبلة على جبيني. «أُحبّك»، قالت قبل أن تتركني. «كلّ شيء سيكون جيّدا، صدّقْني».

عندما غادرت الغرفة، كأنّ بيتا من الصمت فُتح من حولي. كان ذلك صمتا حقيقيّا. صمتا فضائيّا، يبدو أنّ آلة تلغي الضجيج هي مَن كانت تُولّدُه. كان صمتا تامّا مثل بيضة. الصمتُ سلعة كمالية، فكّرتُ قبل أن أنام. وحدهم الأغنياء يستطيعون اقتناءها.



9

فتحتُ البابَ وناديتُ هيلينا. قد أستطيع تمزيق ذلك الصمت بسكّين، ذلك هو الإحساس الذي كان ينتابُني. كما لو أنّه مادة محسوسة ومُبَطّنة. من البلاستيك أو الإسفنج. مادة حيوية وناجعة، كما الماء والهواء. وأنا أمشي عبر الرواق الذي يعجّ بصور ابنتي وصور بارْبارا -بورتريهات بالأبيض والأسود تُذكِّر بدعايات خاصّة بالتأمين الصحّي. انتبهتُ إلى أنّه، في ذلك البيت، لم أكن أنا شيئا غيرَ هذا، ضجيجا في رواق.

حين دخلتُ إلى الصالة، لاحظت أنّ المائدة كانت جاهزة. أوانٍ بيضاء، فوطة بيضاء، أريكة بيضاء. يبدو أنّ صاحبتَي البيت مهووستان بالبياض. وبينما كنتُ أبحث عن ورقة وقلم لأترك رسالة إلى هيلينا، برزت أمامي امرأة ترتدي بزّة، نادتني يا أستاذ وسألتني إن كنتُ أريد أن آخذ حمّاما.

- كم الساعة؟ سألتُها.

- السابعة وخمسة عشر دقيقة.

- هل تناولت ابنتي قهوة الصباح؟

- الساعة تشير إلى السابعة وخمسة عشر دقيقة ليلا. قالت، وهي تنتبه إلى ارتباكي.

- أريد أن أترك رسالة إلى هيلينا. عليّ أن أخرج.

- هي والسيّدة بارْبارا سوف تصلان قريبا. قالت الفتاة.

- لا أستطيع أن أنتظر. هل يمكنك أن تُحْضري لي قلما؟

- لقد قالت السيدة هيلينا إنّه يتعيّن عليك يا أستاذ أن تأخذ حمّاما. قالت ملحّة، وهي تمسك بذراعي.

- لا تلمسيني. أجبتها بشكل حازم.

ابتسمت المرأة. وقالت إنّه لا داعي للتوتّر.

- أين هو الباب؟ سألتُها.

لاحظتُ في عينيها نيّة الاحتفاظ بي سجينا.

- عليّ أن أخرج. صحتُ، وأنا أنظر من حولي.

وأنا أحاول أن أصل إلى الباب، كانت هي تعترض سبيلي، تبتسم وتعتذر، فاضطررت لإلقائها على الأرض كي أهرب.

وما إن صعدتُ إلى الحافلة حتى اتصلت بي هيلينا.

- عليك أن تعود. قالت. سوف نتحدّث.

- لديّ اجتماع مع أعضاء لجنة الإضراب.

- كفّ عن الكذب. ليس هناك أيّ اجتماع.

- وماذا تعرفين أنت عن الحركة الاجتماعية؟

- أبي، من فضلك. لقد اتصلتُ بالمدرسة. تحدّثت مع المديرة،

وشرحت لها الوضع، إنّنا نتّخذ الإجراءات الخاصّة برخصة مرضك.

- عن أيّ شيء تتحدّثين؟ سألتُها بصوت مرتفع. وعن أيّ وضعية؟

- عن هذا بالضبط يجب أن نتحدّث.

- إنّك لست مركز العالم. صحتُ. لا أقبل أن تتّصلي بمدرستي.

وبدورها صاحت:

- هل تعرف أنّ تاباتا يمكنُ أن تقدّم شكاية ضدَّك؟

- ومن تكون تاباتا هذه؟

- إنّها خادمتي. أجابتني، وقد سيطرت على نفسها. لقد اعتديت عليها.

بدوري، استعدتُ السيطرة على نفسي. أخفضت نبرة صوتي لأشرح لها، قبل أن أقطع المكالمة، أنني كنتُ مضطرا للتصرّف بذلك الشكل.

- لقد حاولَت أن تسجنني في شقّتك.

استمرّت هيلينا تتصل بي، لكنّي لم أُجِب مكالماتها مرة أخرى.

نزلتُ في محطّة الحافلة عند شارع كْليلْيا ومشيتُ حتّى العمارة. دخلتُ عبر المرآب كي أتحاشى أن يراني الحارس.

صعدتُ عبر الأدراج؛ لأنني كنتُ أريد أن أتّفق مع مارتا قبل أن أذهب إلى شقّة السيّد إبْسيلونْ. صحيح أنّنا ابتعدنا بعضنا عن بعض

في الآونة الأخيرة، وصحيح -أيضا- أنّ الذنب في ذلك يتحمّله السيّد إبْسيلونْ. لا يمكن للمرء أن يكون زوجا صالحا، ولا زوجة صالحة، مع ضجيج مثل ذلك الضجيج. إن كنتُ من جهتي، كما قالت، قد أصبحتُ قصيًّا وسريع الغضب، فقد صارت هي، أؤكّد ذلك، مشاكسة وغير متسامحة. نفد لطفها. وماذا عن جولاتنا في الحيّ، ونحن نشبك يدينا؟ لم نعد لنشبك يدينا مرة أخرى. لم نعد لنتناول القهوة ونُعلّق معا، بشيء من السخرية، على أخبار الجرائد. وهذا التحوّل كان فقط نتيجة لجلبة جارنا، وما يحدثه من هزيم وفرقعة، من طقطقة وآهات، من ضحكات وأصوات، غيّرت، في نهاية الأمر، وضعيّتنا الشخصية. فلِمَ الدهشةُ إذن؟ في نهاية المطاف، هذا هو الخطر الكبير الذي يشكّله الضجيج: إنّه يتسرّب إلى ذواتنا مثل البكتيريا، ويلوّث دمنا. من الناحية الدينية، الضجيجُ من صفات الشيطان الذي نعرفه حقَّ المعرفة، إن صح القول. لكن، ربّما يستحسن أن نترك القضايا الميتافيزيقية جانبا. سأتحدّث فقط عمّا هو أساسي. إنّنا سنكون، من الآنَ فصاعداً، مُتّحدَين أكثر من أيّ وقت مضى. إلى أن يفرّقنا الموتُ. إن شاءت ذلك. في الصحّة والألم. إن وافقت على ذلك. أريد، انطلاقا من الآن، أن أتقاسم كلّ شيء معك. في هذا السياق، سوف أشرح لها، طبعا، ما حدث بيني وبين السيّد إبْسيلونْ، وعن الطريقة التي وجدتُني بها متورّطا في دوّامة تلك المأساة. لا بدّ أنّ هناك فرصة تنتظرنا. مَن يدري، ربّما عدنا للمضاجعة؟ هل يكون ذلك بوساطة دواء من الأدوية أو مقوي للأعضاء التناسلية؟ ربّما تساعدني في التخلّص من السيّد إبْسيلونْ. ما لا نستطيع القيام به، تحت أيّ فرضية من الفرضيات، هو أن ننفصل، فقط لأن هيلينا أعلنت عن إفلاس زواجنا. ليس لأنها

سعيدة، إن صحّ التعبير، فإنها تملك الحقّ في ابتكار تعاسة الآخرين. إنّ التفكير في خطابي هذا قد زاد من ثقتي بنفسي وقوّى عزيمتي.

لكن، قبل أن أُدخل المفتاح في قفل شقّتنا، لاحظتُ أنّ القفل قد تغيّر. ومن الداخل، كان يأتي صوت مشوّه، ربّما يكون موسيقى جاز، وهو ما أثار دهشتي. فنادرا ما تكون ثمّة موسيقى في البيت. ضغطت على الجرس، وأنا أحاول أن أتذكّر في أيّ فترة من حياتنا توقّفنا أنا ومارتا عن الاستماع للموسيقى معا.

عندما فُتح الباب وظهرت مارتا أمامي، اختفت الأرض من تحت قدميّ. كانت ترتدي لباسا أحمر، وتشدّ شعرها بعقدة عند أعلى رأسها. تضع في عنقها قلادة كنتُ أهديتها إيّاها سابقا بمناسبة عيد من أعياد ميلادها. سحنتُها، التي صارت شاحبة فجأة، كانت تبرزُ ما وضعته من ماكياج على وجهها، وتُظهرُ عينيها المرسومتين بخطّين وأحمر الشفاه على فمها. كانت تبدو أكثر شبابا، ولا علاقة لها بمارتا، تلك الممرضة التي أعرفها. مارتا زوجتي، المتعبة والشاحبة. وكانت أظافرها مصبوغة.

كان واضحا أنّها لم تكن ترغب في حضوري هناك، لكنّي لم أترك لها أيّ خيار. ضغطتُ على الباب بجسدي وما إن دخلتُ حتّى واجهتُ مشهد العشاء الفظيع. كانت المائدة موضوعة وفوقها أواني الضيوف، التي لا نستعملها إلا لماما. وفي الوسط، طبقي المفضّل، جمبري يتصاعد دخانُه، بالرّز والبطاطس المشوية. طالما حضّرَت لي ذلك الطبق. نبيذ أبيض. أزهار مرتبة لتزيين المائدة. وشخص أسود

يجلس مكاني، يرتدي طقما وربطة عنق.

ـ أقدّم لك رودْريغو. قالت. نشتغل معا في المستشفى.

You like potatoa, I like potahto, you like tomato, I like tomahto, Potato, Potahto, Tomato, Tomahto,

بقيت منتبها إلى كلمات الأغنية، التي كانت جزءا من تلك الترتيبات الرومنسية.

- شرُفتُ بمعرفتك. قال وهو يمدّ يده.

لم أستطع القيام بالشيء نفسه. لم أر قطّ في حياتي، في الشارع أو المدرسة، شخصا بذلك السواد كلّه. هناك العديد من السمر، وكلّنا نملك سحنات باهتة نوعا ما في البرازيل، لكن رودْريغو كان تجسيدا للّون الأسود. كان أكثر سوادا من جناحي غراب. لا بدّ أن سنّه لا يتجاوز الثلاثين، وكلّ شيء فيه كان ينمُّ عن القوة، خصوصا عندما يبتسم ويكشف عن أسنانه، الشديدة البياض والجميلة كأنّها مفاتيح بيانو جديد.

- هذا نبيذ رائع. قال معلّقا. أظنّ أنك سترغب في تذوّقه.

- سأُحضر كأسا. قالت مارتا، وهي تتركنا وحدَنا.

- أنت أستاذ. قال مؤكّدا. أمّي -أيضا- كانت تشتغل في مدارس عمومية. كانت عاملة مساعدة.

لماذا يقارنني بخادمة مساعدة؟

- هل أنتما معا؟ همستُ. لا أدري لماذا، لكنّي لم أكن أرغب في أن تسمعنا مارتا.

انكمشت ابتسامته بطيئا، كأنها زهرة تذبل تحت شمس حارقة. ثم انخفضت عيناه نحو المائدة، تجاه العدم، وواضح أنه كان يبحث عمّا يقوله. كنت أعرفُ ما سيأتي.

خشيتُ أن تراني مارتا على ذلك الحال. حاولَت، مع ذلك، أن تقول شيئا وهي تعود من المطبخ، لكنّي كنتُ أسرع منها.

صعدتُ مهرولاً إلى الطابق العُلوي، ودخلت إلى شقّة السيّد إبْسيلونْ ثم ارتميتُ فوق الأريكة.

اتصلتْ بي هيلينا في تلك اللحظة.

- أبي العزيز، أين أنت؟ قالت.

لم أستطع القيام بشيء آخرَ غير النحيب.

- قل لي يا أبي، أين أنت، سوف آتي لأبحث عنك.

- إنّه أسود. قلتُ بعدما تمكّنتُ من كبح بكائي.

- أين أنت؟

- إنّه أسود. قلتُ ملحّا.

- لا تتحدّث بهذا الشكل. هذه أفكار سالفة.

- إنها ليست أفكارا سالفة. فقط أقول إنه أسود. إنه أكثر من أسود،

إنه أزرق زرقةَ البحر.

– كفّ عن هذا. أين أنت؟

– منذ متى وهما معا؟ سألتُها.

– كيف؟

– هل كنت تعرفين كل شيء. لقد نامت في بيتك هذا الأسبوع. أنت تستّرْت عنها. قلت لي إنها نائمة عندما اتصلتُ بك.

– أبي العزيز. من فضلك. ما الفرق في هذا الأمر؟

– منذ متى وهما معا؟

– سنتان. تقريبا.

– وهل كنتِ على علم بذلك؟

– تقريبا.

– هل كنت تعلمين شيئا أم لا تعلمين؟

– نعم كنت أعلم. هي من حكت لي في شهر تموز من السنة الماضية. لم يكن أمرا هينا بالنسبة لها. كان من الممكن أن يحدث لك نفس الشيء. هذه أمور تقع. لكن معك حق: لقد تستّرتُ عليها ليلة عادت غالا إلى البيت. شريطة أن تقول لك هي كل الحقيقة في اليوم الموالي.

– سنتان. كرّرتُ، وأنا أشعر بشيء من الدوخة.

- يمكننا أن نتحدث عن ذلك، بإمكاني أن أساعدك، يا أبي، فهلّا قلتَ لي أين أنت، سآتي لأبحث عنك، ثم نذهب لنتناول العشاء في البيت. بارْبارا تحبّك كثيرا...

قطعتُ المكالمة، سحبتُ البطارية من الهاتف ثم أخذت أمشي نحو غرفة السيّد إبْسيلونْ. بعد ذلك، ارتميتُ فوق السرير، دسستُ وجهي في الوسادة وبدأت أبكي. سنتان.

بكيتُ بصوت منخفض، وأنا أنتحب، كما لم أفعل مُذْ كنتُ طفلا صغيرا.

10

ملاحظةٌ حول الصمت. للصمت عدّةُ خصائصَ، كما لاحظتُ. يمكن أن يكون صمتا آليّا، مثل صمت المستشفيات. ويمكن أن يكون صمتا حجريّا، مثل صمت الصحراء. أو صمتا حيوانيّا، مثل وحشا يتنفّس ويَعِدُ. وقد يكون صمتا نازلا من أعلى، أو قادما من الماضي، يختنق، كأنّه سماء ملبّدة بسحب تجلب العاصفة. أو صمتا صاعدا، يرفعنا نحو السماء.

لا أدري إن كان أثرُ صمت ذلك المكان على نفسي -ذاك الصمت الجديد- يؤدّي إلى انطفاء داخلي، لكن ما وَقَع هو أنّني سرعان ما فقدتُ مفهوم الزمن.

كنتُ أصحو وأنام في دورة غامضة. فجأة أنام أمام الحاسوب ثم أعود إلى وعيي فأقف أمام الدولاب الذي أحتفظ في داخله بالسيّد إبْسيلونْ. أو أغفو فوق الأريكة ثم أستيقظ غارقا في حوض الحمّام. تحوّلت أياماً ولياليَ إلى ضباب كثيف حيث يصعب معرفة ما كان حُلما وما كان موضوعَ الحُلم. مَن قُتل ومَن هو القاتلُ.

ومن بين الأشياء القليلة التي أتذكّرها بكلّ وضوح من تلك الفترة، هناك تلك المسافة المليئة بالخوف بين الشقّة والمرآب، التي قطعتُها بضع مرات، دائما أنزل وأصعد حاملا الحقيبتَين وبداخلهما السيّد إبْسيلونْ، دون أن أتمكّن من المضيّ قُدُما في مشروعي للتخلّص من الجثّة. وأنا أنزل، كنتُ أريد أن أعود لأطمئن داخل شرنقتي، وأفكّر

بشكل أفضل، كي أضع استراتيجية وخطّة ناجحة، لكن، حالما أعود إلى الشقّة، لا أفكّر إلّا في فرصة النزول دون أن يراني أحد، وهو ما كان يحدث دون أن أتمكّن قطّ من التفكير بشكل ملموس في طريقة للتخلّص من ذلك المتاع.

بل أذكر أنّني توقّفت عن التفكير في ذلك بعد أن عثرت على نتائج فحص حمْل لامرأة فوق طاولة سرير السيّد إبْسيلونْ. استنتجتُ من ذلك أنّ صديقة السيّد إبْسيلونْ كانت على وشْك أن تضع رضيعا، وأعترف أنّ ذلك، أكثر من أيّ شيء آخر، تركني في حالة قلق كبير. لم يولد الرضيع بعدُ، وها قد أصبح يتيما، المسكين. أحيانا، كنتُ أتحمّس فأفكّر أنّه عليّ أن أفعل مع صديقة السيّد إبْسيلونْ ما قمت به نفسه مع مارتا، وأن أتبنّى رضيعها. لعلّ قدري هو أن أعتنيَ بأبناء الآخرين.

أذكر -أيضا- أنّني قرأتُ في جريدة قديمة وجدتُها في صالة السيّد إبْسيلونْ حكاية رجل يقضي كلّ سحابة يومه يحفظ قصيدة شعر. ثمّة شِعْرٌ كثير بداخلي، قال الرجل، ممّا أيقظ فيّ فجأة رغبةً في أن أحشوَ نفسي بالقصائد. كانت تنقصني بعض الأشعار، هذا صحيح.

وأمّا الباقي، فكان مجرّد ثُمالة. كان الهاتف يرنّ، وجهاز الاتصال الداخلي أيضا. أظنّ أنّ فرانْسيسْكو ظهر عند الباب، عدّة مرّات. كنتُ أعرف أنّه هو، مع أنّني لم أتأكّد من الأمر عبر الثقب. كان يقف في الجهة الأخرى من الباب، يتنفّس تنفّسا ثقيلا.

ذات يوم، دار المفتاحُ في القفل فدخلت شابّة بعينين هَلِعَتَين،

وهي تسأل عن السيّد إبْسيلونْ. «أنا ابنُ عمه»، قلت لها، وأنا أحمل سكينا خبّأتها وراء ظهري.

- أنت هي المُنظّفة، أليس كذلك؟

تمّ فصْلُها عن العمل في تلك اللحظة بالضبط. شرحتُ لها أنّ القرار لم يكن قراري بل إنّ السيّد إبْسيلونْ هو من اتخذه بنفسه. « أنا آسف جدّا»، قلتُ لها. نحن اثنان فقط هنا، ولا حاجة لنا بمستخدمين. نحن نعتني بنفسينا».

في الحقيقة، كنتُ أريد أن أعتنيَ بالبيت، وكنتُ ممتنا لأنه بإمكاني أن أمكث هناك ولا أحلّ ضيفا على ابنتي، لكنّ المشكلة أنني لا أستطيع أن أمشي. الآن، كانت رجلاي تحملاني بصعوبة إلى النافذة. أحيانا، كنتُ أستيقظ فوق الأرض، أشتمّ رائحة بولي.

لقد عثروا علينا، لا أستطيع تأكيد ذلك بكلّ يقين، يوم فصلتُ تلك الشابّة عن العمل. هي مَن أحضرت الشرطة وفْرانْسيسْكو.

لاحقا، أخبروني أنّني قضيتُ أربعة أيام أغلق على نفسي داخل الشقّة وأنهم قد قبضوا عليّ بسبب الروائح، لكن هذا لم يكن حقيقة. كانت هناك روائحُ كريهة، هذا صحيح، خصوصا بعد أن توقّفت عن رشّ مبيد الحشرات ومزيل الروائح في البيت، لكنّ الفضل في القبض علي يعود إلى المُنظّفة نفسها. هي التي من لم تصدّق أيّ أكذوبة من الأكاذيب التي قلت لها.

أذكر جيدا ذلك الشرطي بحاجبَيه المقوَّسَين وهو يسألني إن كنتُ

قتلتُ صاحب الشقّة.

- قتلتُه، أجل. قلتُ. عن طريق الخطأ.

صَفّدوني وأخذوني إلى سيّارة الشرطة. كانوا يريدونني أن أمشيَ حتّى أصل إلى السيّارة، لكنّي فقدتُ الوعيَ وسقطتُ قبل ذلك، قبل أن أبلغَ السيّارة بكثير.

كان من الممكن أن يرتطم رأسي وأموت، مثل السيّد إبْسيلونْ، لكنّي نجوتُ من الموت.



الجزءُ الثّاني

«The mind is in its own place, and in itself

Can make a heav'n of hell, a hell of heav'n»

- John Milton, *Paradise Lost*, Book I.[5]

---

(5) «فَالعَقلُ هُو مَكانُ ذاتِه الخاصّ، وفيه يُمكنُ للنّفس أن تصنعَ سماءً في الجحيم، وجحيمًا في السماء».
جون ملتون، **الفردوس المفقود**، الكتاب الأول. (ترجمة: حنا عبّود) منشورات الهيئة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، 2011. (المترجم)

1

استيقظتُ في المستشفى، على ممرّضة وهي تغيّر مكان الولوج إلى شرايين الدم في ذراعي. «من أجل تزويد الجسد بالمصل»، قالت، وهي تشرح لي، بعد أن حدث فراغ في الأنسجة، ممّا تركني قلقاً حقّا. لم يكن بإمكاني أن أخاطر بأيّ ضياع؛ لأنني نجوت بأعجوبة. «يوم آخر، وكنتَ ستتعرّض لنوبة قلبية»، أكّدت الممرضة.

وعلمتُ أيضا، عن طريق المحامي الذي تعاقدَت معه هيلينا، أنّني، بصفتي متّهما اعترفَ بما نُسب إليه، كان عليّ أن أذهب من فوري إلى وحدة سجنيّة، وهو ما لم يحصل نظرا لوضعيّتي الصحية المتدهورة. «لا تتحدّث مع أيّ أحد دون حضوري»، نبّهني. «إنّني أدرس القضية». كان اسمه فرانْكو موريرا مينْدس، وكان شخصا قصير القامة وسريع الحركات مثل تلك العصافير التي اعتدتُ أن أقتلها بالمقلاع في طفولتي.

من غرفتي، عبر النافذة، كنتُ أستطيع أن أرى الفناء المفتوح، حيث كانت توجد، حسب قول الممرضات، حديقة، وهو الآن مكان تغطيه أرضية من الإسمنت القديم والمشقوق. في أيام الحرّ والشمس الساطعة، تنبعث منه حرارة ذرّية. أمّا الليالي، فكانت أقلّ حرّا، خصوصا حين يندلقُ عبر جدران جناح التمريض مطرٌ خفيف يغمر المدينة.

كنتُ محاصرا بمرضى يحتضرون ذات اليمين وذات الشمال.

يشخرون، يئنّون، يبكون، لكنّ صفير الأجهزة الإلكترونية هو ما كان يحرمني من النوم.

فهذا هنا، بقناع الأوكسجين، محارب، وتلك هنالك، بحِفاظِها، انسحبت من المعركة. كانت مارتا تظهر من العدم في ذهني، هي وعشيقها، دائما معا، يعرضان صورا مرضية، التقطاها بهاتفَيهما الخلويَين. في واحدة منها كانت هي تبرز شجاعتها، وفي الأخرى، جرحها. وفي صورة أخرى، كنتُ أرى الهزيمة. إن فقدان الأمل هو أول خطوة نحو الموت، كما قد تقول. وهو قد يوافقها الرأي، ويذكر بعض الأمثلة على ذلك. وقد يتبادلان الإطراء فيما بينهما؛ ليرفع كلّ واحد من قدر مهنية الآخر. دائما هناك أبلهُ يرى الفنّ فيما تقوم به من هراء. وبيتُنا، الطاهر، المنعش، الذي تفوح منه رائحة الفواكه الطازجة، قد يكون عُشّا للزوجَين الجديدَين. وقد تهبّ ريح دافئة في الصالة، فيشعر الاثنان معا براحة مَن يملك يوما كاملا من الراحة في انتظاره.

وفي لحظة معيّنة أثناء الحديث، قد تشتكي مارتا منّي ومن تصرّفاتي. لأنّني، قد تدّعي، على أنّني تلقّيتُ تكوينا في مجال البيولوجيا، فإنني لا أعرف كيف أتحدّث عن البكتيريا والفيروسات. كما لا أعرف كيف أتحدّث عن الأمراض وطرق العلاج. ليس بتلك الطريقة التي اعتادا هما كعاشقَين القيام بذلك. فما الذي يمكن لزوجي السابق أن يقول عن ضمور نسيج العضلات؟ المسكين، قد تقول، إنّه أستاذ. إنك تعرف، هؤلاء البائسون الذين يقضون حياتهم في الإضراب. هل تعلم أنّ زوجي السابق تلقّى تكوينا في مجال

البيولوجيا؟ ليس للسبب نفسه مثلنا نحن الممرضين، الذين نتفانى في عملنا. زوجي السابق لا يؤمن بحبّ الآخرين. لا يؤمن بتقديم الخدمات، والطيبة، ولا ببابا نويل ولا باليانصيب. لا يؤمن بأيّ شيء من هذا. فبأيّ شيء يؤمن زوجك السابق يا عزيزتي؟ قد يسألها ذلك الأسود المُتيّم.

هكذا هم بعض الأزواج، يتهيّجون بفعل ديدان الماضي. زوجي، قد تجيبه، يؤمن بالرياضيات الخالصة. يؤمن بالطبيعة. وبالأخطاء. وخصوصا الأخطاء. أفدح الأخطاء وأكثرها بلاهة. يؤمن بكلّ أنواع الأخطاء.

لحظتها، سوف تأخذه إلى المطبخ وتريه ذلك العمل الفنّي الذي أبدعتُهُ في السقف.

وإن لم يكن ذلك كافيا لانتصاب ذَكره والدخول في المضاجعة الموالية، فقد يسألها الأسود لماذا اختار زوجك، بحقّ السماء، أن يدرس البيولوجيا. حسنا، قد تضيف، كان ذلك بسبب فضوله المرضيّ. لأنّ زوجي، منذ طفولته، كان منبهرا بالنّمل وبيوت النّمل. لم يكن منبهرا بالحشرة في حدّ ذاتها، بل بحِكمة الحشرة. هكذا، بدأ يدرس الحشرات. هذه تنقُل وتلك تبني. نمل أبيض ونحل. هذ ملكة وتلك من العبيد. تلك تلدُ النسل، وهذه تخزّن الأكل. منذ الأزل، كان زوجي منبهرا بمنطق الطبيعة. وبالطيور التي يجب أن تطير جنوبا أو شمالا. وبدورات الطبيعة. بالحرارة التي تُشغّل فعل الذّرات. وبالجزيئات. بالبذرة، بالتراب وبالماء، وبما يجمع العناصر وأشكال الحياة. كان

ذلك المنطق وتلك الروابط هو ما أيقظ في زوجي الاهتمام بدراسة الأحماض النّووية ومُركّب البروتينات، وهكذا انتهى به المطاف في البيولوجيا، التي دفعته بدورها نحو التدريس، ودسّت جمال الطبيعة في اسْته وجعلته يلقي دروسا حول الخلايا البَلْعَمية.

لحظتها، قد يضحكان بأعلى صوتهما. والضحك، كما نعرف، هو دين العشّاق. قريبا، سوف يتزوّجان. وربّما يكون لهما طفل باهت اللّون يضفي الشرعية على زواجهما.

ولم يكن بإمكاني أن أكفَّ عن التفكير أنّه، فوق رأسَيهما، بينما السعادة تنسج خيوطها حولهما، كانت جثّة السيّد إبْسيلونْ تعجُّ بالحياة. خلايا تنبعث هنا وهنالك. في كلّ لحظة وحين. أولا، في القلب، ثم بعد ذلك تظهر أنظمة إيكولوجية جديدة تحتضن ملايير البكتيريات المنحدرة من مليارات أخرى من الأنواع المتعددة التي سوف تشبعه جوعها في إنجاز مسلسل تعفُّن السيّد إبْسيلونْ.

مثل هذه الأفكار وأفكار أخرى كان تتلوّى في خَلدي كالثعابين، وتسرع نبضي، وتجعلني موقنا من أزمة قلبية وشيكة. أصبحت أشعر بتشنُّجات عضلية وأتقيّأ الطعام.

«نعتقد أنك تعيش حالة صدمة وسنبدأ معك علاجا نفسيّا»، قال لي الدكتور، بعد أن زارني طبيب آخر، من جناح الأمراض النفسية، وفحصني.

تحت مفعول العقاقير المؤثّرة في الذهن، صار من المستحيل أن أفتح عينيّ. كان يلفّني خدر، فأنام، ثم أستيقظ، دون التفكير في

مارتا، أرتعش أو أتجمّد، أتخيّل أن ذرّات جسدي وإلكتروناتِه تتفسّخ بداخلي، تذوب، وتصبح سائلا ضحلا يتسرّب إلى جزيئات حديد السرير، حيث كنتُ أعيد بناء ذاتي مرة أخرى، فأصبح أكثر صلابة، أضاهي صلابة الرصاص ثم أصير فولاذا. أحيانا، مع مارتا. دون خوف. مُعرّضا للحرّ وللبرد. بداخلي. دون ندم. أفرغُ ذاتي. أتبخّر أو أذوب. قرب جثّة السيّد إبْسيلونْ. ثم أتجمّد ثانية. دون شعور بالذنب. أنام.

ليس من السهل دائما إدراك ما هو سائل، ما هو حُلم وما هو واقع. أحيانا، كنت أظنّ أنّني لا أنام، بالكاد أنتقل من مرحلة التكتّل الجامد، حين تكون جزيئاتنا محكوما عليها بالجمود، في شكل بيولوجي من أشكال العبودية، إلى مرحلة سائلة، مع حرية التفريغ والتدفّق، وأنا أتبوّل في الملاءات. أحيانا، أسمع همساتٍ، مُزحا، أشياء مألوفة. وأحيانا أخرى، أسمع أجراسا أو طنين آلات. تظهر أضواء، ومضات معدنية، مقاطع من الواقع، مع طرقات طويلة، تأخذني إلى تلك المدينة الصغيرة داخل البرازيل، حيث ولدتُ.

وأنا أستيقظ ذا صباح، شعرتُ أنّني تجدّدتُ بشكل تامّ. كما لو أن صوت الواقع قد اختنق، وسمح للصمت أن يتغلغل في ذاتي. رفقة المصل. كما لو أن الصمت حقيقة سائلة، تغمرني بالراحة.

لم يكن الطبيب وحدَه هو من اهتمّ بحكاياتي. تكلّمْ أكثر من هذا، كان يقول لي المحامي الذي يدافع عنّي، صف هذا الأمر وذلك الشيء. تمكّنت من أن أحكي مرتين أو ثلاث مرات كيف سقط السيّد

إبْسيلونْ في الحمّام، لكن ما كان يثير فضوله هو انطباعاتي السمعية.

كان هناك شرطيان عند باب جناح التمريض يسهران على سلامتي. طلب أحدهما أن يأخذ صورة معي. هكذا اكتشفتُ أنّني قد أصبحت من المشاهير. «هل صحيح»، سألتُ الممرضات. «هل صحيح أنّ الصحافيين يبحثون عنّي؟».

ثم أكّدنَ لي وهنّ تقلن: «إنّ صورتك لا تبرح شاشات التلفزة».

بل رأيـتُ نفسي في نشرات الأخبار. «جـزّارُ كازا فيرْدي»، هكذا كانوا يتحدّثون عنّي. لا أفهم لماذا كانوا يستبدلون «لابّا» بـــ «كازا فيرْدي». «أنا أسكن في لابّا» كنت أقول كلّ مرة. ولماذا كانوا يستعملون الصورة نفسها، تلك التي أظهر فيها وكأن دوّامة قد تحرّكت في شعري؟ ثمّة صور عديدة يظهر فيها شعري ممشوطا مثل شعر مُقدّم الأخبار، لكنّهم يصرّون على عرض تلك الصورة التي أبدو فيها مثل المجنون.

- سوف يتمّ نقلك إلى سجن باوْلو مارْيو نيفيشكو. قال لي المحامي، في خميسٍ ما.

- قبل ذلك، سوف يأخذونك إلى معهد الطبّ الشرعيّ من أجل فحص جسم الجريمة.

كان ذلك سيتمّ في اليوم الموالي، عندما أذن لي الأطباء بمغادرة المستشفى.

- لا تتحدّث مع أيّ أحد دون حضوري. قال المحامي مؤكّدا.

كان من حقّي أن ألزم الصمت، لكن ليس لهذا السبب رفضت الإجابة عن أسئلة المحقّق. ولم يكن ذلك -أيضا- من أجل إخفاء الحقيقة. أسوأ ما في الأمر أنّه كان يعرف. أظنّ أنه من الأفضل أن أستمع على أن أتكلّم. من يتكلّم، يلمح. ومن يستمع، يسبق الأحداث.

2

في زنزانتي، التي تبلغ مساحتها عشرين مترا مربعا، في الجناح حيث يتركز مرتكبو جرائم العنف والاعتداءات الجنسية، كان هناك عشرة سجناء، أنا منهم. ما إن وصلتُ، حتّى قام أحدهم، وهو الأكثر نحافة، بتسليمي سريره، مع ستائر ومروحة.

ـ فكّرْ في ذلك المكان كأنّه امتياز. قال لي الأستاذ موريرا مينْدس.

في الأجنحة الأخرى، حسب قوله، كانت زنازين من الحجم نفسه تضمّ ثلاثين سجينا أو أكثر، حشد عنيف من تجّار المخدّرات والقتلة يختلفون تماما عن رفقاء زنزانتي، الذين كانوا يتشكّلون من سياسيّين فاسدين، ومديري دولة سابقين، وصرّافين ومتملّصين من أداء الضرائب، أشخاص إن وضعوهم في أجنحة أخرى يمكن أن يتعرّضوا للقتل أو الاستعباد الجنسي. بدوري، قد لا أستطيع العيش في تلك الزنازين، أكّد لي الأستاذ موريرا مينْدس. لذلك كنتُ هناك محاطا بقطيع من الحملان الوديعة.

لاحقا فقط علمتُ أنّني أدين بكلّ ذلك، بما في ذلك السرير والستائر، إلى بارْبارا، شريكة حياة ابنتي. بصفتها مديرة تنفيذية لمقاولة كبيرة في مجال الاتصالات، كانت تملك شبكة واسعة من المعارف، كما قالت لي هيلينا. بالمصادفة، كانت قد تناولت العشاء مع رئيس مدير السجن الذي كنت فيه. رئيس الرؤساء، الذي ربّما يكون هو حاكم الولاية، حسب تقديراتي. تصوّرتُ ذلك المشهد في

القصر. لو تعرّضَ حماي للقتل على أيدي مجرميكم، ربّما قالت، سأضع جحافلي من الصحافيين المتعطّشين للدم ليتعقّبوك. سأقطع جلدك. ثم أضع لحمك في آلة طحن. في ساعة مؤاتية. هكذا تخيّلتُ المشهد. لست أدري لماذا شعرت بدفء يسري في قلبي وأنا أفكّر في عائلتي وهي تساوم الولاية.

بسبب التحقيقات الصحفية، كانوا جميعا يعرفونني. حكيت ذلك للأستاذ موريرا مينْدس في ذلك الصباح، عندما التقينا في غرفة الزيارة. سألتُه متى يمكنني أن أتحدّث مع الصحافيين؟

شرح لي، بعد أن فتح المحفظة التي كان يحملها معه وبعد أن نشر كلّ الوثائق فوق الطاولة التي كانت بيننا، أن ذلك لم يكن هو أهمّ شيء في تلك اللحظة.

- انظر إن فهمت. قال. إن الرأي العام ليس بجانبنا. لن يكونوا لطفاء معك في حالة إنجاز تحقيق صحفي.

- لكن، وبازْبارا؟

- وما شأن بازْبارا بالموضوع؟

- ألا يمكنها أن تختار صحفيّا يكون إلى جانبنا؟

- وما الهدف من ذلك؟

- كي ينجز معي مقابلة صحفية.

- وماذا تريد أن تقول لهؤلاء الناس؟

- إنني لم أقتل جاري عن قصد. لقد سقط.

تنهّد الأستاذ موريرا مينْدس، وأخذ ينقر بأصابعه على الطاولة. «سأقول لك شيئا»، قال، «كل تسع دقائق ونحن هنا، نتحدّث، يتعرّض شخص للقتل في البرازيل. حتّى تلك الزمرة من المتعصّبين، والموالين للحكومة والثوّار في سورية لا يمكنهم أن يتجاوزوا إحصائياتنا في القتل. وهل تعرف مدى اهتمام الصحافة بهذه الجرائم كلِّها؟ لا شيء».

قال لي إنّه لو كنتُ أسودَ وفقيرا، أو لو كان جاري أسودَ وفقيرا، لما اهتمّ أحد بالموضوع. «ما يجعل جريمة ما مثيرة بالنسبة للصحافة في بلادنا هو الطبقة الاجتماعية للجثّة أو القاتل. وهذا حالك. وهل تعرف أيّ أسئلة يريدون طرحها عليك؟ كيف قطعت جسم جارك إلى قسمَين؟ كيف سحبته عبر الرواق؟ هل كنت تريد أن تدفنه في حفرة مستوية أم كنت تريد أن تذيبَه في صهريج مملوء بمحلول حمضيّ؟ فهل أنت مستعد للإجابة عن هذه الأسئلة؟».كانت نبرتُه تنمّ عن شيء من الوعظ والسخرية، ممّا جعلني، منذئذٍ، أناديه ذهنيّا باسم «المحامي البغيض». ألححت على لقاء الصحافيين، قائلا إنّه من المهمّ جدّا أن أدلي بروايتي للأحداث.

«إنّه ليس مخطئا»، أكّد لي لاحقا دوني، رفيقي في الزنزانة، وهو محام متخصّص في قضايا الغشّ الضريبي. «ما حاول أن يقول لك هو أنّ كلّ شيء يُختصر في المنطق الاقتصادي، ما دام الفقراء يقتُلون ويموتون على نطاق واسع، وهذا العرض الإجرامي لا يثير

فضول الصحافة. أمّا معنا نحن، فالأمر مختلف. نحن، أفراد الطبقة المتوسّطة، نقتُل بأعداد قليلة، ونموت بأعداد قليلة. جرائمُنا تُعدُّ سلعا كمالية، إن صح التعبير. لذلك، فإنّ الصحافيين لا يُفوّتون فرصة تسجيل متى نقتل ومتى نموت. وإضافة إلى ذلك، باعتبارنا منتوجا، فإننا نُباع بشكل أحسن. نحن من أولئك الذي يملكون بطاقة انخراط في نادي الحيّ، نتردّد على عالم ليس بالدائري، بل هو عالم مربّع، ومنظّم، مُجرَّب ومصادق عليه. نحن قوم نعيشُ على الأسرار، نقدّم الدروس للآخرين، نسدّ، نضع الأختام، نشهد ونوقّع. نحن قوم نتناول الدجاج المشويّ أيام الأحد، ثم نستيقظ دائما على السعة نفسها لنتّبع روتينا مرتّبا سلفا، وليس لنرميَ ربيبا من الشرفة أو نقتل جارا صاخبا».

لقد كانت طريقة للنظر إلى الأمور. لكنّ الإحساس الذي كان لديّ، وأنا أستمع إلى المحامي المكلّف بقضيّتي، هو أنه لم يكن متعاطفا تعاطفا كاملا.

كانت هناك جزئية مهمّة لم يكن يأخذها في الحسبان: «أنا لم أقتل ذلك الرجل»، كرّرتُ أكثر من مرة. حتى أكون جديرا بلقب قاتل، كان عليّ أن أقوم بفعل القتل. لا يكفي وجود جثّة داخل حقيبة كي أصبح قاتلا. فإنني كنتُ أريد أن أتخلّص من جاري عندما صار مادة ميتة، هذا شيء، لكن أن أضع حدّا لحياته، فذلك شيء آخر، مختلف تماما. وأنا لم أقم بهذا الأمر الأخير؛ لأنني في الأصل مواطن نزيهٌ. لكن، وحسب رأي «المحامي البغيض»، لن ينفعني شيء من هذا في الدفاع، أولا لأنه سيكون من الصعب إثبات براءتي ثم إنّني تعاملتُ باحتقار مع الجثّة «كما لو أنّ القتيل كان خنزيرا»، قال.

«لكنّه كان قد مات»، قلتُ مقترحا جوابا، بيدَ أنّ إحساسا غامضا استحوذ عليّ في تلك اللحظة، كما لو أنّني، فجأة، عددت نفسي منهزما، أو كما لو أن مشكلتي مع المحامي كانت مشكلة لغة. لم يكن يفهم ما أقوله والعكس بالعكس. لم نكن نتحدث اللغة نفسها.

- لن يكون من الحكمة الدفع بحجّة الدفاع عن النفس. قال. لكنّي اكتشفتُ حالة مهمّة من حالات فقه القانون.

ثم حكى لي، عندئذ، قصة مربّية قتلت رضيعا. أكّد فحصها النفسي أنها كانت تعاني من بؤرة صرع تفجّرت بسبب الموجات الناتجة عن بكاء الطفل.

كان يتحدّث بسرعة، ويبدو مضطربا، وأنا أشعر بشيء من التعب. كان كل شيء يبدو سهلا، من طريقته في الحكي. سوف يطلب من المحكمة أن تجريَ لي اختبارًا نفسيًا، وحتّى لو تمّت إداتني، فسأذهب إلى وَحدة سجنية خاصّة بالمرضى النفسيّين، سأمكث فيها بعض الوقت، ثم سيعمل على أن يتمّ نقلي إلى وَحدة خاصّة ثم بعد ذلك إلى بيت هيلينا. سألني إن كنت أستحسنُ خطّته.

كانت هناك جزئية مهمّة. «أنا لا أعاني من الصرع»، قلتُ. «الخطأ الذي ارتكبتُه أنني سحبتُ البساط».

من الواضح أنّ ملاحظاتي كانت تثير حفيظته. ممّا لا شكّ فيه، قلتُ، أنّ السيّد إبْسيلونْ مات بسببي. «لكنّ قصدي»، أكّدتُ، «لم يكن أن أقتله».

قام بحركة ازدراء، ثم قال:

- ليس هذا هو موضوع حديثنا. ما هو المُشكل في أن يحاكموك بصفتك شخصا لا يتمتّع بقواه العقلية جميعها؟

كان على حقّ. لم يكن هناك أيّ مُشكل، فقط كنتُ أحاول أن أكون وفيّا للوقائع.

ثم تحدّث «المحامي البغيض» وقال:

- أنت نفسك أخبرتني أنّ الأدويـة التي بدأت تتناولها في المستشفى أثّرت في رهافة سمعك. أليس كذلك؟

- هل يعد هذا من أعراض الصرع؟

- لنطرح السؤالَ بصيغة أخرى: هل تفضّل أن ينظر إليك الناس وَحشاً أم مجَنوناً؟ لا أحد يمكنه أن يُبرّأ ساحة شخص استعمل منشارا يدويّا بغرض...

لم أتركه لينهيَ الجملة:

- هل سندخل في مثل هذه التفاصيل أثناء محاكمتي؟ سألته.

- أيّ تفاصيل؟

- تفاصيل إجرائية وتقنية.

انتابني إحساس بأنّه قد كتم ضحكة. أخذ يجمع وثائقه ويدسّها من جديد في المحفظة، وهو يقول إنّ الصرع، لو تمّ تحريكه عن طريق

موجات صوتية، لدى مريض كان يعاني سابقا من التوتّر هو أحسن ما لدينا، وأنه يجدر بي أن أوافق على ذلك.

- ثم إن كونك أستاذا، قد يساعدنا كثيرا، في هذا المنحى. قال.

قبل أن يودّعني، سألته إن كان يستطيع تحديد مكان إقامة صديقة جاري.

- لماذا؟

قلت له إنّني أودّ أن أكتب إليها، وأعرض عليها مساعدتي في العناية بالطفل. «من الناحية المالية، على الأقلّ».

- هذا يتنافى مع خطّتنا في الدفاع. قال. ثم سألني:

- كيف لك أن تندم عن فعل اقترفته وقدراتك العقلية في خطر؟ سألني.

التفكيرُ في الشابّة، وحدها، وفي الطفل من دون أب، وفيهما معا، في القادم من السنوات، جالسَين في المطبخ، يتناولان الغداء في صمت، لستُ أدري، كانت صورة تملأ ذهني بالحزن. لكنّي لم أخبره بشيء من ذلك.

إن رجلا ينظر لي بوصفي جزّارا لا يمكن أن يكون محاميّا يدافع عنّي.

3

بزّة بلوْن الصوف، ثلاث وجبات في اليوم، حمّام شمس أثناء الصباح، حشرات في الزنزانة، ومشاجرات عرضيّة. لا أحد يغنّي؛ فالغناء ممنوع من لدن المساجين أنفسهم، وهو ما أعدّه قاعدة ذكية. ولم يكن مسموحا بالصفير. من حين لآخر، كان يموت أحدهم في جناحنا، أو يأخذونه إلى الزنزانة المنعزلة. هكذا كان واقعنا.

كان دوني يقول: قذارةٌ هي الحياة، وحدةٌ هي الحياة، عقابٌ هي الحياة، حزنٌ هي الحياة، انتقامٌ هي الحياَة، وصراعٌ هي الحياة. لكنّ الحياة في السجن، في نظره، ليست حياة، بل وقتا ميّتا لا غير. فجوةٌ. تَوقُّفٌ لا يُنتج غير أشباح ومزيدا من الجثث.

لاحظتُ أن ما يجنّن الناس، هو التفكير في أنه سيُطلقُ سراحُهم قريبا. كلّ من يصل إلى هناك، وأنا منهم أيضا، يكون لديه هذا الوهم في الأيام الأولى. حتّى في حالات الجرائم المشهودة، فإنّ إحساس من يُحبسُ في زنزانة هو دائما الإحساس نفسه، إحساس من كان ضحية خطأ، وأن ذلك المكان لا يليق به. في البداية يتشبّث الناس بالقضبان، يفيضون طاقة وحماسا. بل إنّهم لا يجلسون. وهذا ما حدث لي. لكن تأتي لحظة تدرك فيها بنفسك أنّ ذلك ليس شيئا مؤقتا. فيُصيبك الإحباط، وتتمرّد. لكن هذا الأمر -أيضا- يزول.

من المهمّ جدّا التوفّر على استراتيجية لقتل الوقت، قال لي دوني في الأيام الأولى. هو كان يقرأ. كثيرون كانوا يدخّنون الأعشاب

المخدّرة، ثم سرعان ما قدّموا لي منها سيجارة. بل إنّني حاولت أن أدخّنها. خمّنتُ أن الكمّية الضرورية لصرْع الحيوان المتمرّد بداخلي ينبغي أن تكون كبيرة، وتنطوي على بعض الأخطار. يوم يكون مزاجه سيّئا، حتّى السجّان الذي يبيع لنا المخدّرات يضعنا في الزنزانة المنعزلة. بسبب سيجارة أعشاب.

طوّرتُ، في نهاية الأمر، تقنياتي الخاصّة في البقاء. بعد العاشرة ليلا، عندما تنطفئ الأضواء ويُطبقُ الصمتُ في الجناح، صمتٌ رطب، عضوي، حيّ، مثل صمت الأدغال، أغمضُ عينيّ، أحفر قبرا عميقا داخل ذاتي، وأدفن نفسي حيا، هناك بداخلي. ثم أخرج. أحيانا كثيرة، أراني أمشي حتى أبلغ المخبزة، كما كنتُ أفعل كلّ صباح؛ لأشتري خبزا طازجا. جولة قصيرة، من فرسخَين، تحت سماء مدينة لا لون لها، أعبر ساحة صغيرة، تحيا تحت هيمنة شجرة تين عمرها مئة عام، رفعت جذورُها شقوقا في أرضية الرصيف من حولها. كنتُ أحبّ أن أتملّى غصونها وهي تنتشر في السماء كأنّها سرطان مُداهم. وأحيانا أخرى، كنتُ أفتح جعة وأتذوّق كلّ جرعة، ببطء، في صالة بيتي، بينما مارتا تُحضّر لنا العشاء. وكانت هناك أوقات آخذ فيها دراجة هوائية وأتوغّل في طريق عبر جبال كانتاريرا، وسط أجمة كثيفة، أشتمّ الرائحة الظّليلة للأشجار المدارية. عند نهاية الجولة، حين يشتدّ الحرّ، كنتُ أسبح في النهر، ثم أجفّف جسمي تحت أشعة الشمس فوق العشب. ما يستطيع ذهنُنا القيام به شيء لا يصدق حقّا. بالنسبة لمن يتقن التخيُّل، الواقع يمكن استبعادُه، مثل فيلم رديء. في بعض المناسبات، كنتُ أفضّل أن آخذ مارتا من عملها، وهذا يستوجب العودة إلى الوراء في الزمن، يوم

كنا شابَّين ونُحبّ أن نمشيَ بيدَين مشبكتَين. اليوم سوف نذهب إلى السينما، قلتُ ذات مرة. تمكّنتُ من استنساخ الفيلم كلّه في ذهني. كان عنوانُه «المُطارَدُ». البرامج لا تنقصُنا. هذا هو امتياز الخيال. الخيال لا ينتهي. وإن أنت تناولت أدوية لتهدّئ جسدك، كما هو الحال بالنسبة لي، فذاك أحسن بكثير. نهاية أسبوع في ريو دي جانيرو. زيارة إلى جوكي كْلوب. لقاء مع شخصيّات معروفة. بل إنّني أبدعت برنامج لقاءات اتخذت له اسم «تحت القفل والمفتاح». يأتون بالشخص الذي سأحاوره مُصفّدا إلى زنزانتي، في سيّارة لنقل السجناء، لإجراء مقابلة مدّتُها نصفُ ساعة، تُنقل على الهواء مباشرة. كانت هناك لائحة طويلة من الأشخاص الذين كنتُ أودُّ أن أجري معهم مقابلات فأُجبرُ نفسي على حفظها، وَفق الترتيب الأبجدي. لكن ليس كل من أقابلهم من الشخصيات التي كنت معجبا بها؛ بل على النقيض من ذلك، عادة ما كنتُ أستضيف أشخاصا بغيضين. أشخاصا يصيحون كثيرا في التلفزة، مثلا. مقدّمين ومعلّقين رياضيين. صحافيين. لماذا تصيح/ ين أثناء البثّ المباشر؟ هل تستعدّ/ ين تقنيا للحديث صائحا/ ة أم أنّ هذه الملكة الهستيرية موجودة فيك منذ الأزل؟ كنتُ أسأل. هل حاولت، يا سيّدي، مرة أن تعلّق على الهدف أو الفوز في سباق السيّارات دون أن تصيح؟ في الحقيقة، كانت الإمكانيات كثيرة جدّا حتّى إنّني سرعان ما بدأت أخصّص جزءا من فترات الزوال لبرامجي، خصوصا حين يخرج الجميع لأخذ حمّام شمس، وتبقى الزنزانة هادئة.

لكن، في ذلك السبت، كان ثمة توتّر في الهواء، ولم أتمكّن من إجراء مقابلة مع أيّ أحد. كان الأمر دائما صعبا عشية يوم الزيارات.

ينشغل الجميع بالطوابير وعمليات التفتيش، وما قد يتعرّض له الأقارب من إهانات. من جهتي، كنتُ أعرف أنّه لا حاجة لي بأن أنشغل بذلك. كانت ابنتي متزوّجة من متخصّصة في اختراق الطوابير. في الحقيقة، تلك كانت أحد امتيازات العمل الذي تمارسه بارْبارا. لا طوابير بالنسبة لأشخاص يشغلون وظائف معيّنة في البرازيل، وفي ذلك الأحد، قبل الجميع، كانت هيلينا هناك، نضرة ومستعدّة. جمالُها، الذي ازداد بهاء بفضل طقم ذي لون ترابيّ وسترة، لم يكن ينسجم مع ذلك المكان، تماما كما لا ينسجم الموت مع وجه العذراء. وإلى جانبها، كانت بارْبارا ترتدي مبذلا به كريّات حمراء مزركشة، وسروالا بالألوان نفسها يلتصق بجلدها. لو لم يكن بسبب هذا اللباس المتبجح، الذي يليق بالمهرّجين، ما كان لساقَيها الغليظتَين وجسدها ذي الشكل المخروطي أن يثيروا كلّ ذلك الانتباه.

في الطاولات المجاورة، كان الضجيج هائلا. كان الناس يتحدّثون بصوت مرتفع، وخاصّة النساء، ممّا ترك ذهني مشتّتا.

ظلّت هيلينا مشدوهة حين سألتُها عن إمكانية تغيير المحامي. قالت إنّها قد أنفقت مالا كثيرا ولا تستطيع أن تتعاقد مع محام آخرَ. عندما أكّدتُ لها أنّني أملك الحقّ في محامٍ منتدب، كما أخبرنيً بذلك دوني، ازداد كدرها، فقالت:

- اسأل ذلك الفاسد الوقح -لم تكن تحبّ دوني، بالفعل- اسأل ذلك القرش الصغير الذي لم تكن صورته حتّى السنة الفارطة تبرح عناوين الجرائد، لماذا لا يغيّر محاميه بمحامٍ منتدب؟ ما المُشكِل في

الأستاذ موريرا مينْدس؟

- أظنّ أنّه لا يصدّقني. أجبتُها.

- إنّه لا يحتاج أن يصدّقك. عليه أن يدافع عنك، لا شيء غير هذا. أجابتْني.

لو كانت المسألة تتلخّص في ذلك الأمر، فالموضوع انتهى. كنت أكره أن أعكّر مزاج هيلينا. قلت لها:

- أوافقك الرأي.

لكنّها ظلّت تدافع عن «المحامي البغيض» وعن استراتيجيته. قالت إنّ ما يهمّ العدالة هي أدلة النزاع بيني وبين جاري، الذي تقدّم ضدّي بتقرير بوليسيّ عشرة أيام قبل وفاته.

- هل كنت تعرف ذلك؟

- نعم. لقد حدثني الأستاذ موريرا مينْدس عن ذلك.

وكان هناك -أيضا- تقرير التشريح الطبّي، الذي أثبت وجود رصاصة في ساق جاري، بالإضافة إلى كدمات على مستوى الرأس والذراع، ممّا يؤكّد وقوع صراع جسديّ قبل الموت. وكلّ هذا يجعل قضيّتي أكثر تعقيدا، قالت. وكان هناك أيضا القفّال الذي صنعتُ عنده نسخة من مفاتيح شقّة جاري، وهو دليل قويّ آخر ضدّي. تقدّم الرجل من تلقاء نفسه إلى الشرطة بعد أن علم بسجني عبر نشرة الأخبار. وقالت -أيضا- إنّ الأستاذ موريرا مينْدس بصدد دراسة كلّ ذلك، وخصوصا

إمكانية تأثير الواقع الراهن للتعليم. صورة مؤثّرة من السّب والتّنمّر، والعنف الجسديّ والتهديد بالقتل. على حالتي النفسية، لمّا كان عدد كبير من المُدرّسين يعانون من مشكلات الاكتئاب، واضطرابات الهلع وأشياء أخرى أسوأ من ذلك.

- فهل تدرك أنّنا بحاجة إلى الأستاذ موريرا مينْدس؟

بدأ ذلك الحديث يتعبني.

- أين تعرّفتِ على حاكم الولاية؟ سألتُ بارْبارا، وأنا أحاولُ أن أغيّر الموضوع.

قالت، وهي تبتسم إنّها لم تكن تعرف حاكم الولاية.

بقينا صامتِين نحن الثلاثة. كنتُ أريد أن أعود إلى زنزانتي، لكنّهما ظلّتا هناك، من دون أيّ موضوع الآن. كنتُ وعدتُ نفسي ألا أقوم بذلك، لكنّي لم أتمالك نفسي.

- كيف حال أمّك. سألتُ هيلينا.

- إنّها بخير. تشتغل كثيرا. أجابتني.

- أودّ لو جاءت لزيارتي. قلتُ مقترحا.

- هل أنت جادّ؟

- نعم. أجبتُها، دون ثقة.

ابتسمت هيلينا.

- من دون الأسْود، أردفتُ.

طلبت منّي هيلينا ألا أتحدّث ثانية عن صديق أمّها بذلك الشكل.

سألتُها كيف ينبغي لي أن أتحدّث عنه، فقالت، دون أن تفكّر:

- أمريكيّ من أصل أفريقيّ.

وقبل أن تغادر، غيّرت رأيها:

- اسمه رودْريغو. نادِه رودْريغو.

4

هو، أي الطبيب، قد يسألني: «ماذا كان شعورك تجاه السيّد إبْسيلونْ؟».

وأنا قد أجيبه دون خجل: الحقد. لكنّ الأمر لم يكن يتعلّق بحقد حقيقي ولا بنيويّ، قد أشرح له، بل بظاهرة بيولوجية ناتجة عن الإنزيمات.

الطبيب: هل نحن نتحدّث عن حقد كيميائيّ؟

أنا: تماما. حقد لا إراديّ. كان السيّد إبْسيلونْ يمارس سلطة كبيرة على نظامي النّصلي. كان صخبُه يثير في دماغي اشتباكات عصبية تنذر بالخطر وغير مرغوب فيها. بعبارة أوضح، كان يملك المفتاح الذي يجعل مزاجي يصاب بتماسّ كهربائي. وعليه، فإنّ الأمر لم يكن يتعلّق بإحساس حقيقي. لم أكن أفكّر في السيّد إبْسيلونْ باعتباره كائنا بشريّا.

وقد يسألني الطبيب: ألم تكن تعدّه إنسانا؟ فكيف كنت تعدُّ جارك؟

وقد أجيبه: كنت أعدّه شيئا. جهازا يرسل أصواتا مختلفة وغير ضرورية. دون محتوى.

هو: جهاز بثّ؟

أنا: كلّا. سلاحا. كنت أشعر أنّه يهدّدني.

كنتُ، في الحقيقة، متأثّرا بما كنتُ أقرؤه أثناء إنجاز واجباتي المدرسية في البيت. حسب المعطيات وما كان يجلبه لي «المحامي البغيض» من كتب علمية، وانطلاقا من تجاربي الخاصة، فإن الضجيج يعدُّ خميرة حقيقية من حيث توليد العنف. لم يعد هناك صمت في أيّ مكان؛ لأنّ الصمت صار اليوم سلعة خاصّة بالأغنياء، قد أقول للطبيب. إن الأصوات غير المرغوب فيها، بمختلف أنواعها ودرجاتها، تُفَعّل آليّات كهربائية تحفز دماغنا على خلق أحاسيس سلبية، انطلاقا من ردود فعل كيميائية. وتقضي الموجات الصوتية السامّة على تعاطفنا. تغيّر مواقفنا. وتجعلنا نكشّر عن أسناننا. وهذا ما حدث لي.

وقد أضيف: نحن، أهل الطبقة المتوسّطة، الفقراء، المعرّضين لتلوّث صوتي كبير في المدن ولهستيريا صوتية مرتبطة بثقافة الجماهير، يتهدّدنا خطر التحوّل إلى قطيع من الشرّ. إنّ جحيم العالم الصوتي يحوّلنا إلى آلات موت حقيقية. وفي ذلك خطر علينا وعلى المجتمع.

بل أستطيع أن أعطيَه محاضرة حول قشرة الدماغ، واللوزتَين، والوطاء البطينيّ وعناصر أخرى من عناصر نظام غضبنا.

ربّما قد يريد أن يعرف كيف أتعاملُ شخصيّا مع ضجيج السجن. في هذه الحالة، سأقول له إنه إن لم يتمكّن علم الفيزياء بعدُ من إعادة ابتكار الصمت، فلدينا على الأقلّ فرصة الاعتماد على مساعدة علم الكيمياء. وأدويتي، قد أقول، تشتغل مثل كاتم للضجيج.

منذ أن أكّد لي المحامي موعد المقابلة النفسية، بدأت أتدرّب

ذهنيّا على الأجوبة، أمزجُ فرضيّاتي الخاصية حول الضجيج بما يجلبه لي «المحامي البغيض» من قراءات في الموضوع. رخّص القاضي بإجراء المقابلة وقام مدير السجن بتحديد موعدها. نصحني «المحامي البغيض» بألا أتكلّم كثيرا، وألا أخوض في الأمور العلمية، لكنّي لم أكن أوافقه الرأي. لماذا كنتُ، أقرأ، إذن، كلّ تلك المقالات والدراسات التي كان يسلّمها لي؟

تركتني الاستعداداتُ الذهنية في حالة من القلق. وقد ساعدني دوني، حين أجبرني على أن أرافقه إلى مكتبة السجن. «الأدب هو علاجي الخاصّ ضدَّ القلق»، قال لي. «اقرأ قليلا من العلم وكثيراً من الأدب». لم تكن هناك كثير من العناوين المهمّة، فأخذت في الأخير ديوانا للشاعر إدغار آلان بُو.

قبل أن أدخل السجن، لم يسبق لي في حياتي أن قرأت أشعارا. القصائد، كنت أفكّر، مثل فاكهة «الكارامْبولا»[6]. فاكهة لا نحلم بها. نرغب في تذوّق المانجو. أو العنب. لكن، لا أحد يقول: لدي رغبة قوية في أكل «الكارامْبولا»، مع أنّها فاكهة كاملة، في مذاقها وشكلها.

بدأت أحمل معي كتاب بّو أينما حللتُ وارتحلت. حتّى إلى حمّام الشمس. لم أكن أفهم كلّ الكلمات، لكن ذلك، كما أدركت بعد ذلك، يشكّل جزءا من المتعة. فعدمُ القدرة على التميز، أنا على يقين من ذلك، عنصر بنيويّ من عناصر الشعر تماما كما أنّ حامض

(6) فاكهة مدارية غريبة وباهظة الثمن في الأسواق الدولية؛ نظرا لندرتها وما تتميّز به من منافع غذائية وطبّية متعدّدة. (المترجم)

البوتاسيوم مكوّن أساسيّ من مكوّنات الخبز داخل منظومة السجن.

تمكّنتُ من حفظ إحدى القصائد عن ظهر قلب حتّى أُثْبت أمام الخبرة النفسية أنّ ذاكرتي كانت في حالة جيدة.

- إنها ليست فكرة جيدة. قال «المحامي البغيض» معلّقا.

لم يكن يروقه أيّ شيء ممّا كنت أقترح عليه من أفكار.

جرت المقابلة صباح يوم ثلاثاء. أخذوني مصفّدا إلى مكان المقابلة. كانت تلك أول مرة أغادر فيها السجن. كان شيئا غريبا. كلّ شيء يبدو لي مصطنعا، كما لو أنّ الواقع كان مسلسلا تلفزيونيّا، وأنا شخصية جديدة من شخصيات الحبكة، لا أملك تجربة كبيرة في مجال تسجيل الحلقات. في تلك المرة، لم أكن لطيفا مع الصحافيين. تجاهلتُ أسئلتهم وخفضتُ رأسي، حسب ما نصحني به «المحامي البغيض».

عكس ما كنت أتوقّعُ، كانت المقابلة مع الطبيبة النفسية مثيرة.

كان اسمها آنا واستحسنت الأمر حين استظهرت أمامها، نكاية «بالمحامي البغيض»، هذه القصيدة:

في سُمّ الموجة كان هناك خداع

وفي دُرْدورها تابوت مناسب

لمن يبحث هناك عن مواساة

روح ضالة تُشيِّدُ

في خياله المنعزل

فردوسا فوق بحيرة عابسة وقاتمة.

بعد ذلك، أرادت أن تعرف من كان في الدُّردور، ما هي الموجة، وأين كان الخداع.

شرحتُ: إن متعة الشعر تكمن في التكهّن والافتراضات. والشعر المفهوم ليس شعرا، بل صكّا من الصكوك. ومعنى الشعر يوجدُ فيما لا تقوله الكلمات. بل أكّدتُ لها -أيضا- أنه، في فضاء الاعتقال، يمكن للشعر أن يلعب وظيفة تشبه وظيفة الدين بالنسبة للملحدين.

هكذا بدأت مقابلتنا. كانت آنا جميلة بشكل لا يتأتّى إلا للنساء الذكيات. من دون تصنّع، ولا حركات. جمال مغسول، من دون مساحيق. كانت تنتعل حذاءً رياضيّا، وترتدي سروال جينز تحت السترة. وخلافا لمارتا، لم تكن السترة تشوّه شكل جسدها. كان شبابُها يضفي أناقة على بذلتها.

دُهشتُ وأنا ألاحظ أنّ الفحص كان يتضمّن تقييما جسديّا مع عدة قياسات ورسومات لموجات الدماغ. في ورقة فوق الطاولة، كانت تُدوِّن أرقاما داخل مربّعات حيث كنتُ أقرأ، بنظرة خاطفة،

كلمات وعبارات ذات حمولة شعرية قوية من قبيل قُطر طولي، قُطر مستعرض، قُطر عظام الفكَّين. لم أكن أعرف أن أقطارنا لها كلّ هذه الأهمية بالنسبة لذهننا، قلتُ.

مرّرت أصابعها فوق أنفي الأفطس، وحاجبيّ البارزين، نظرت إلى نصف وجهي الأيمن ثم إلى نصف وجهي الأيسر، سلّطت ضوءا على قرنيتَي عينيّ، انْظُر هنا انظر هنالك، قالت، والآن أخرجْ لسانك، لسانٌ ناتئ، رأيتها تُدوّن في الورقة.

ظننتُ أنّها، مثل القاضي، ستطلب منّي أن أحكيَ شيئا عن ذلك الحادث المأساوي، لكن أطباء النفس، كما علمتُ، أكثر لطفا من القضاة. على الأقلّ أثناء الحديث. كانت تدوّن أجوبتي بقدرة كبيرة على التلخيص: 54 سنة، أبيض، برازيلي، متزوّج... إلخ... كذا. أرادت أن تعرف عنّي كلّ شيء. أمّي عصبية، حكيتُ. أب غائب. من دون سرطان في العائلة. خالٌ انتحاريّ. إلمام عادي بمبادئ القراءة والكتابة. نتائج مدرسية تتراوح بين الجيّد والرديء. صُداعٌ عَرَضي.

«وماذا عن السقطات؟ والكسر؟ والعمليات الجراحية؟» لا تترك صغيرة ولا كبيرة. قياس النبض والورك. عمليات جراحية؟ التهاب الزائدة الدودية. تقيّؤ، خفقان. من دون ألم في البطن، ولا في الصدر. انتفاخ الأمعاء. انعدام الهواء. أول علاقة جنسية. أمراض تناسلية في مرحلة المراهقة. ليست أمراضا زُهريّة. حياة عاطفية وجنسية. حياة زوجية.

- لماذا لم تخلف أطفالا؟ سألتني.

- لأنني أعاني من العقم. أجبتُها.

كان ذلك مُتْعبا. لكن، قبل أن أغادر قاعتها، يرافقني الحرس، اقترحَت عليّ لعبة غريبة.

ـ سوف أقول أنا كلمة، وعليكَ أن تقول لي كلمة أخرى يكون معناها مرتبطا بالكلمة السابقة.

ثم قالت:

- كتاب.

فأجبت:

- ورقة.

- برتقالة.

- حامض.

- قِطّ.

- موت.

- ليل.

- ضجيج.

- معدن.

- سكين.

- ضحكة.

حتّى بعد أن غادرتُ، وبعد المحاكمة، استمررتُ في ممارسة تلك اللعبة، كلمة تجرّ أخرى، التي تجرّ الموالية، وهكذا دواليك. كلّ كلمة لها طريقة نطقها، وقوّتها، وجمالها. وبالتفكير مليّا في الأمر، فإنّ وضع الكلمات بطريقة متراكبة هو، فعلا، شكل من أشكال كتابة الشعر.

5

كان لقائي مع مارتا مثل قنبلة موقوتة دُفنت يوم الأحد. ويوم الخميس، لم تنفع حصص التأمل وقراءة الشعر في التهديء من روعي.

ثارت حفيظتي عندما رأيتُ، يوم الزيارة، أن «المحامي البغيض» كان قد وصل قبلي.

«ما اتضح لنا، من خلال الفحص الطبي، هو أن المريض يمثل حالة مرضية منحطة، مع تقلص مؤقت في الوعي لا يشكل خطرا على الذاكرة، ولا يترتب عنه فقدان شامل أو جزئي للذاكرة. حالته متزنة، مع بعض الثغرات في إدراك الواقع (...) ونظرا لسجل أمراضه، يبدو من المحتمل أن المريض يعاني من صرع نفسي، ربما تسيطر عليه بعض الاندفاعات، ويُظهرُ عدوانية غريبة عن تصرفاته العادية».

لم يكن «المحامي البغيض» يريدني أن أقرأ التقرير بكامله.

ـ المهم فقط هو الاستجابة لما تقدمت به العدالة من شروط. قال، وهو يشير إلى الوثيقة المرفقة التي كانت بين يديّ أيضا.

كنتُ على عجلة من أمري، ولا أرغب في أن يكون هناك حين تأتي مارتا، ولا أن تطلع هي على ما جاء في التقرير. كنتُ أتوجّس تلك الزيارة. كنتُ أرغب في أن تفهم مارتا بعض الأمور المتعلقة بزواجنا، وهي أمور لم أتمكّن من إدراكها شخصيا إلا في السجن.

لم أكن واثقا من أنها سوف تقبل دعوتي تلقائيّا. ربّما أجبرتها هيلينا على زيارتي. مارتا قادرة على القيام بعدّة أشياء في الحياة، حتّى على أن تهجرني كما فعلت، لكنّها لن تستطيع أبدا أن تعصي أمرا لابنتها.

وحين ظهرت، بلباس أصفرَ جديد، وتسريحة شعر جديدة، وماكياج جديد، كانت تبدو مارتا أخرى، تحمل كيسا وحلوى اشترتها من المخبزة حوّلَها مفتشو أمن السجن إلى طحين، شعرتُ بحنان كبير تجاهها. قدّمتُ لها صديقي الوحيد في السجن، دوني، الذي على أنّه اغتنى باختلاس أموال الدولة، رفقة سياسيّين ألقي عليهم القبض في السنوات الأخيرة، فأنّه كان رجلا ذا شهامة عالية.

كانت مارتا متوتّرة، كما لاحظتُ. قصيّة. تنظرُ إلى جانبَيها بطريقة، لنَقُل، مثل ما اعتاد أمريكيّ متوسط، من ولاية تكساس، أن ينظر بها إلى مكسيكي اجتاز من فوره الحدود بصفة غير قانونية.

وحين وضعتُ يدي فوق يديها، عدّت ذهنيا حتّى اثنين قبل أن تسحبهما نحوها.

سألتُها، بطريقة استراتيجية، عن أصدقائنا.

- أصدقاؤكِ، صححتُ. في الحقيقة، لست أدري إن كانوا أصدقائي، قلتُ معلّقا. أظنّ أنّهم لا يحبّونني؛ لأنه منذ أن دخلتُ هذا المكان، لم أحظَ منهم بزيارة. مع أنني أنا أيضا لا أحبهم. بل أظن أنك أنت أيضا لم تكوني تحبينهم. الحقيقة، أنه لم يكن لنا أصدقاء. هذا ماقلتُه لها. ثم سألتُها:

- هل تعرفين زوجين من دون أصدقاء؟ هم نحن. لقد كنتِ صديقتي الوحيدة.

كان حذاؤها الصغير من دون كعب يضرب بإيقاع على الأرض، ويشي بقلق.

سألتها إن كانت تصدق أنني قد قتلتُ جارنا.

- نعم. قالت بطريقة غير مُقْنعة.

- وهل تعرفين لماذا فعلتُ ذلك؟

- هل يجب أن نتحدّث عن هذا الموضوع؟

- من المهمّ أن تعرفي. أتعلمين؟

- لست واثقة من أنني فهمت سؤالك.

- هل تعرفين لماذا وضعتُ جارنا في حقيبتيْن بعد أن مات عن طريق الخطأ؟

- ما لا أفهم هو لماذا لم تتصل بالشرطة فورا؟

- فعلتُ ذلك من أجلنا. لم أكن أريد أن أخرب حياتنا.

- لقد كانت حياتنا خرابا.

- لم أكن أريد أن أخيب آمالك. وآمال هيلينا.

- ماذا تريدُني أن أقول؟ ها نحن هنا الآن. لا أدري ما أقول.

لم تكن هناك أية إمكانية للمصالحة، كنت أعرف ذلك. هل ضرطْتَ؟ خطر ببالي، لحظتها، ذلك السؤال الذي طالما كانت مارتا تطرحه عليّ، والذي كنتُ أعدّه إهانة في حقّي؛ لأنه كان يكفي أن تشمّ فجأة رائحة كريهة داخل السيّارة، في البيت أو السوق الممتاز لتُحمّلني مسؤوليتها. أحيانا، كنت مركّزا، أصحّح التمارين، فتظهر. هل ضرطْتَ؟ وفي السينما، هل ضرطْتَ؟ في الواقع، كان ذلك نذيرا. فأي زواج ينجو من هذا الأمر؟

كان من المهمّ أن أقول لها إنّ أكبر خطأً في زواجنا هو شيء من الإفراط في الحميمية. وانعدام الوقار. صداقتنا كانت خطأً. فالزوج والمرأة لا يمكن أن يكونا صديقَين. صداقتنا كانت ترياقا حقيقيّا قضى على حبّنا. لقد فجّرنا حبّنا داخليا بوساطة صداقتنا الخالصة. لا أدري في أيّ لحظة من حياتي لم يعد الجنس شيئا مهمّا بالنسبة لي، شرحتُ لها. ثم أردفتُ:

- لكن، فجأة، وأنا ماثل أمامك وعضوي يتدلّى بين ساقيّ، كان شيئا يغمرني بالخجل. فكرة استعماله، وإيلاجه في جسدك، بدأت تبدو أمرا مهينا. جسدُك، كنت أفكّر، لا بدّ أنّ له أهدافا أحسن من ذلك. ودون شبقيّة صرنا مجرّد أشخاص نعتني بصداقتنا. أصبحنا شريكَين، ناجحَين، متعاونَين. لا تظنّي أنّني أنا من يقول هذا. إنّها ليست أفكاري الخاصّة، بل أفكار شاعر قرأتُه، ولا أستطيع أن أذكر اسمه الآن لأنني متوتّر. لماذا أنت هنا. ولماذا أنا متأثّر على وشْك أن أبكي؟

كانت مارتا تائهة داخل لباسها. كما لو أن لباسها كان درعا أو

شخصية كانت هناك لتلعب دورا من الأدوار.

عندما سألتُها إن كانت تحبّ رودْريغو، أجابتني بكلمة «نعم» محتشمة.

- تكلّمي عاليا. أمرتُها بنبرة عدوانية.

حينئذٍ فقط نظرت إليّ في عينيّ. قالت إنّها ستتزوّج رودْريغو وإنّها آسفة لذلك أسفا شديدا. وإنّ الذنب ليس ذنبَها هي، ولا ذنبه هو. وإن ذلك قد حدث كما تحدث عاصفة. وكانت تفضّل لو حدثت الأمور بطريقة أخرى، بل إنّها كانت تفضّل أن تكون هي الشخص الذي يعاني بدل أن تكون هي السبب في ما أشعر به من استياء. وإنّني كنت زوجا صالحا، زوجا مثاليا -باستثناء ما فعلته بجارنا- ولا أستحقّ ما كانت هي تتسبّب فيه لي من عذاب.

بطريقة ما، كانت تتحدّث عمّا حدث لنا بالطريقة نفسها التي كنتُ أتحدّث بها عمّا جرى بيني وبين السيّد إنْسيلونْ. كما لو أنّ الأمر يتعلّق بحادث أو خطأ على الطريق. فَقَدَ السائق السيطرة على المقود، زاغ عن الطريق وداسنا. أو العكس. كنتُ أقود السيّارة. وفي ومضة سهو وقع الاصطدام. وانتهى كلّ شيء. فما ذنبنا؟ لا هي ولا أنا استطعنا أن نتفادى ذلك.

لزمنا الصمت، لا أدري كم من الوقت. بدا كأنّه وقت طويل جدّا. عندما لا تسمع، باستثناء دقّات قلبك، غير تنفّسك المنتظم والموزون، حينها تدرك معنى أن تكون وحيدا.

طلبتُ أن يأخذني شرطي ويعيدني إلى زنزانتي حتّى دون أن أودّع.

6

صارمٌ. ورطةٌ. آمُل. ملصقٌ. هوميروس. في الرواق، قرب فريق من التقنيّين، كنتُ أرصّ الكلمات في ذهني، بينما أنتظر بداية الأشغال.

الدرّاجات النارية التي تتحرّك في الشارع هناك في الخارج كانت تطنّ في أذني كأنّها ذباب.

– يمكنك أن تبدأ. قال أحد أعضاء الفريق التقنيّ.

أدخلتُ المفتاح في القفل وفتحتُ باب شقّة جاري.

أن ندخل إلى بيت شخص كان قد مات كأن نقلب الموت من الجهة الأخرى لنجد بعض خيوط من الحياة. كان قلبي منقبضا، وأنا أحاول أن أستجيب لطلبات الخبراء، أتبع مسار يوم الواقعة. ذهبتُ مباشرة نحو المكتب. شرحتُ لهم أنّني يومئذٍ لم أتمكّن من تفتيش الحاسوب الذي كان محميّا بكلمة سرّ.

سألني المفوّض:

– إذن، أولا أخذت السلاح ثم، بعد ذلك، ذهبت تبحث عن قطّتك؟

أجبتُه أنّ العكس هو ما حدث.

فأراد، حينئذٍ، أن أبدأ من جديد.

تسْستْت، كنتُ أقول، وأنا أمشي في البيت، من دون عجلة، حتى يتمكّن المصوّر الذي يرافقني من توثيق ذلك.

كانوا يلحّون على أن أكرّر أفعالي تماما كما حدثت في الماضي، وهو ما حاولتُ القيام به. أخذتُ المسدس. انتعلتُ الحذاء. ضربتُ أرضية الرواق بالحذاء. في الحمّام، نقبّتُ في الرفوف. اختبأتُ وراء الباب. عرضتُ عليهم كيف سحبتُ البساط وكيف حدث سقوط جاري.

- لماذا خبأت الجثّة في الدولاب؟ سألني المفوّض بلباقة.

فأجبته:

- ظننتُ أنّه قد يكون هناك موضوعا بشكل أحسن.

كنتُ أحاول أن أكون رسميّا في أجوبتي، ولم أكن دائما موفّقا في اختيار أحسن العبارات. في الواقع، لم أكن أشعر بالراحة تماما، خصوصا أنّ المحامي حذّرني من أن إعادة تمثيل الجريمة ينبغي أن تكون منسجمة مع تقارير التحقيق وما جاء في الشهادات التي أدليتُ بها سابقا، وأنا لم أكن أعرف إن كنت منسجما. أحيانا، كنت أحكي سلفا ما كان لاحقا، في مسلسل واقعة الحادث. أو العكس. كان الجوّ حارّا جدّا. وصارت الأمور إلى الأسوأ عندما وضعوا دمية داخل حوض الحمّام وطلبوا منّي أن أبيّن لهم كيف قطعتُ بالمنشار ساقَي السيّد إبْسيلونْ.

- لماذا تضحك؟ سألني محامي الطرف الآخر الذي كان يتابع

إعادة تمثيل الجريمة. لم أكن أبتسم. كنت أحاول الحفاظ على وضعيّتي، مقرفصا هناك، وفي يدي فرجار سلّموني إيّاه ليكون بمثابة منشار يدويّ. لم تعد هناك أيّ عضلة من عضلات جسمي يمكن أجعلها متوتّرة بشكل أكبر. كأنّني بلغتُ أقصى درجات ما أستطيع القيام به. أظنّ أنّني تصرّفتُ كذلك لهذا السبب. شعرتُ كأنّ شيئا كان ينكسر بداخلي. صدر صوت غريب من فمي، وسقطتُ على الأرض، أصيح.

ليس من طبعي أن أفتعل مشهدا من ذلك النوع. كنتُ أعرف أنه لا شيء من ذلك كان حقيقيّا. «لكنّ أعصابك ليست من فولاذ»، قال لي المحامي لاحقا.

- هل ستتحمّل مسؤوليتك لو أنّ مُوكّلي دخل في أزمة؟ سمعتُه يسأل المفوّض.

قدّموا لي ماء، وأجلسوني فوق الأريكة.

عند الخروج، كان هناك كثير من الناس. فضوليّون وصحافيّون. تمكّنت من رؤية ثلاث لافتات كتبت عليها كلمة «عدالة». وصاح أحدهم «ليعدم من دون محاكمة!»، وأنا ألج إلى السيّارة.

وسمعتُ أشياء أخرى كثيرة أثناء مرحلة المحاكمة.

لم يكن شيئا سيّئا عبور المدينة على متن سيّارة نقل السجناء، رفقة رجال شرطة مسلّحين. إنها نزهة، على أيّ حال، فكّرتُ. لكنّ المكان كان يصيبني بالحزن. بطريقة ما، كان يشبه مدارسنا العمومية. الألوان

الرمادية نفسها من أعلى إلى أسفل. الأرشيفات نفسها التي تتقيّأ ورقاً. البوّابون والحراس، الأكراش، البواسل، الخدومون. العفن نفسه. الأروقة الباهتة نفسها. ومن حين لآخر، رائحة القهوة المسخنة نفسها تندسُّ في خياشيمنا. حتّى الأطفال كانوا هناك. وأنا أعود إلى هناك رأيتهم يرجعون جماعات، من ساحة قريبة من هناك، حيث يقضون سحابة يومهم في تدخين المخدرات والاعتداء على المارّة.

أكثر ما كان يثير قلقي هو ملاحظة تلك المحافظ ذات اللون القشدي التي تلفّ جرائمنا المتراكمة في كلّ مكان قرب الجدران. بطريقة ما، كان ذلك بمثابة النظر إلى الجحيم والخلود مجتمعين، مثل زوجٍ وزوجة. ولو أنّ أرقامنا المظلمة استمرّت في الارتفاع، كنتُ أفكّر، فإنّ المدينة كاملة بأسوارها كلّها ومنازلها وطرقها لن تكون سوى حاملات لتلك الأكوام من الجرائم المختلفة، التي تتوالد مثل الفئران في الأنفاق.

قبل كلّ جلسة استماع، كان المحامي يقصفني بالإجراءات الاحترازية والنصائح: تجنّب هذا الأمر، تحاشى ذلك الموضوع. لا تغيّر نظراتك من مكان لآخر. لا تطأطئ رأسك. لا تتلعثم.

هناك سيكولوجية كاملة خاصة بهذه الاستنطاقات، وتنوّع غنيّ من الإشارات النفسية الداخلية التي تزوّد كلّ هؤلاء الناس، من محقّقين، ومفوّضين، ومنعشين، وخبراء، كان يقول. يتزوّدون بما لا يُقال. بما ينفلت منّا. بما يرونه يطفو على السطح فقط.

أحيانا، ما نظنّ أنّه قد يساعدنا هو بالضبط ما قد يقضي علينا،

حسب رأي المحامي المكلّف بالدفاع عنّي. والعكس صحيح. «استحضر دائما أطروحتنا: توقّف مؤقّت لصفاء الوعي». لم يكن ذلك أمرا هيّنًا. لو كنتُ مدينةً، لكنّا نتحدّث عن عطب مؤقت في نظام شبكة الكهرباء. كان ينبغي تحديد القوانين التي سيطبّقها القضاة، وَفق ما جاء في تقارير الخبراء. لا يكفي أن أكون مشتعلا أو منطفئا. كان لا بدّ من إثبات أن صمامي الكهربائي كان محروقا فيما مضى.

ما لا نستطيع شرحه، ننساه. ما يبدو فظيعا، ننساه. ما يبدو غريبا، ننساه. ما يبدو غير منطقي، ننساه. كان عليّ أن أبتكر قواعدي الخاصّة لأنجوَ من جلسات الاستماع.

أذكر أنّه، في إحدى تلك الجلسات، بعد إعادة تمثيل الجريمة، أرادوا أن يعرفوا كيف حملتُ جثّة السيّد إبْسيلونْ إلى الدولاب.

- لا أذكر شيئا. قلتُ وأنا أحاول أن أكون منسجما مع ما قلتُه أثناء إعادة تمثيل الجريمة.

- سحبتَه من شعره. قال المفوّض.

- لقد أكّد مُوكّلي من فوره أنه لا يذكر شيئا. قال الأستاذ موريرا مينْدس.

- هل تريد أن يجيب المحامي مكانك، سألني المفوّض، بعد أن حوّل نظراته نحو الأعلى، كمن يطلب الصبر من الرّب.

- إنه المحامي الذي وكّلتُه في الدفاع عنّي. قلتُ مرتبكا.

- إنّك لا تساعد موكّلك في شيء، يا سيّدي. قال المفوّض للأستاذ موريرا مينْدس، ثم عادا يتناقشان. لم تعد العلاقة ودّية بينهما منذ مدّة طويلة.

- عليك أن تعلم أنّ هذه هي الفرصة لتوضّح الوقائع وتدافع عن نفسك. قال المفوّض، بنبرة لطيفة، قبل أن تستأنف جلسة الاستماع أشغالها.

لم أكن مرتاحا وأنا أمتنع عن الرّدّ عليه، ومع ذلك لزمتُ الصمت.

ثم أردف:

- كان إيغور يزنّ أكثر من ثمانين كيلوغراما. أتصوّر أنّه لم يكن من السهل حملُ جسده من الحمّام إلى الردهة.

كان العرق يتصبّب عبر قميصي حتّى يمتصّه زنّار سروالي الداخلي. كنتُ أحدّق به، دون أن أقول شيئا.

- لقد سحبْتَه من شعره. قال مؤكّدا.

وحينئذٍ أخذ ورقة كانت فوق الطاولة وراح يحدّق بها لحظة. بعد ذلك قال:

- في الحقيقة، ونظرا للكدمات فوق الكتلة العضلية لعنق الضحية، فإنك كدت تنتزع عنق جارك وأنت تسحبه حتّى الدولاب.

- لقد كان ميتا. قلتُ.

- هل فحصتَ نبضَه؟

لم أتمكّن من التعبير بالكلمات، لكنّي قمتُ بحركة تأكيد خفيفة من رأسي، تكاد تكون آليّة.

- إذن، أنت تذكر متى سحبتَه. قال المفوّض.

- كلا. أجبته، وأنا أحاول تصحيح خطئي.

لكنّ الضرر كان قد حدث. واستمرّ الاستنطاق ثلاث ساعات أخرى.

بعد انتهاء جلسة الاستماع، أثار المحامي انتباهي. لقد قلتُ لك ألف مرة، قال لي، أن هذه الرجل سوف يضع لك فخّا. إنّها تقنية يستعملونها: يسألون المرء ألف مرة، بألف طريقة مختلفة، وأنت سقطت في الفخّ، قال. وأنّ كلّ مجهوداته قد تذهب سدى إن وقعتُ في خطأ كذلك الخطأ. أخطاء مثل ذلك الخطأ، قال، هي السبب الذي يقف وراء وجود بعض القتلة الذي يتعفّنون في السجن. كان دائما يستعمل هذه العبارة. يتعفّنون في السجن. بل أظنّ أنّ عبارة «يتعفّنون في السجن» كانت هي عبارته المفضّلة.

صعبٌ جدّا أن يكون المرء مُتّهما. لا يهمّ كم من جهودٍ تُبذل لتساعد العدالة، أو كم من أشياء تذكرها أو تنساها، تندم عليها أو تنكرها. لا يهمّ كم تؤكّد، تكذب، تشي أو كم من أخبار تُنقل. إنّ دعوى جنائية، كما تعلّمتُ، ليست دراما لها بداية، وعقدة، فنهاية. وليست -أيضا- معادلة رياضية. لا تخضع لتسلسل منطقي. إنّها تبدو أشبه بتشابك نباتي، طفيليات تكبر بلا نظام، ليس نحو الأعلى، بحثا عن الشمس، بل نحو الأسفل، نحو الداخل، حول نفسها، في دوائر،

طبقة فوق أخرى، متشابكة، حتى تشكّل فخّا.

7

- **لقد وصلتَ في اللّحظة الجامدة من المحاكمة.** قال دوني.

كُنّا في قاعة التصنيع، حيث نشتغل بتركيب الصنابير.

كان دوني مدرّسا بتلك المصلحة وبسببه قدّمت ترشيحي للعمل. ثلاثة أيام من العمل قد تَخصم يوما واحدا من عقوبتي. لكن كانت هناك أسباب أخرى دفعتني لأكون هناك. أولا، لأنّ المصلحة الأخرى كانت خاصّة بالمساجين المهتمّين بإصلاح الكراسيّ المكسّرة. كراسٍ مدرسية، بكمّيات هائلة. حجم كبير جدا حتّى إنّ من يشتغل هناكَ بترميم قطع من الخشب، فإنّ مؤسّسة التعليم البرازيلي ربّما تبدو له مكانا يتعلّم فيه التلاميذ -أساسا- كيف يكسّرون الكراسي. كنتُ أصاب بالحزن، فقط لرؤية ذلك. حكى لي زميل، يميل إلى القتل، أنه وجد في أحد الكراسيّ دما متجمّدا. لذا، فصناعة الصنابير أحسن من ذلك كثيرا. جعلت هذه المهنة حياتي في السجن أكثر موضوعية. لأنّني أحبّ الروتين.

«كلّ متّهم، أردف قائلا، يجد نفسه أولا في حالة سقوط تصيبه بالدوار. إنّها العمود الأفقي لحرف «L». يتّخذ التحقيق، في البداية إيقاع انهيار ثلجيّ. فجأة، هم، أي الخبراء والمحقّقون، يكتشفون كلّ شيء. والحقيقة، تقفز فوق أعناقهم. فهذا تحويل أموال، وهذا تأمين على الحياة، وهذه بقايا دم، وهذا شاهد عرَضي، يبدو أنّ الأدلّة ضدَّنا تبدأ كأنّها تنمو فوق الأشجار. حينئذٍ، بعد أن يتمكّنوا من وضعنا هنا،

وبعد أن يرفضوا حقنا في قانون الإحضار، هناك يبدأ العمود الجانبي لحرف «L». وهذه المرحلة هي السُّوأَى. إنّها المرحلة التي يبلغ فيه المرء الحضيض، وتتجمّد فيه الأمور. وتظلّ رديئة وقتا طويلا. مدة غير محدّدة. وأنت في هذه المرحلة. لا شيء يحدث».

لم ينقضِ وقتي هناك بأسرع من انقضاء وقته. يمكنني أن أقول، مع ذلك، إنّني قَمت بأحسن ما يمكنني القيام به وَفق ما توفّر لديّ. لا أظنّ أنّ أيّ مجرم أو مغتصب في ذلك الجناح صنع عددا أكثر من الصنابير. حتّى دوني نفسه. تجاوزته في هذا الغرض. لم يكن يهمّني إن كانت صنابير جدران أو صنابير مقاعد، صنابير أرضية أو ذات حنفيات عالية، كنت ماهرا في تركيبها جميعا، ثم بدأت أُعلّم السجناء المبتدئين.

ليلا، وأنا في السرير، كنتُ أحبّ أن أفكّر أنّ عملي موجود في كل مكان. مثل الفنّان الذي تُسمع قطعه الموسيقية على أمواج الإذاعة، وفي السيّارات، وفي الساحات، كانت لي صنابير من صنعي في كلّ أنحاء البرازيل. كلَّ صباح، يقوم أحدهم، في مكان ما من البلاد، بفتح أو وضع صنبور من صنعي. ليس أنّ هذا مهم، لكنّه على الأقلّ عمل منتجٌ وسلمي، مقارنة بالتدريس. يمكن قياس نتائجي عند نهاية الشهر. واسمي هناك في الأعلى: أحسن صانع في هذا الأسبوع. أحسن صانع في هذا الشهر. أحسن صانع في هذه السنة. لا أذكر أنّني قد حصلت، في السنوات الأخيرة، على نتيجة أحسن من هذه في عملي مدرّسا. كانت عملية تصحيح الامتحانات البينية تأخذني إلى الجهة المقابلة، ويصفعني في الوجه مدى عدم جدوى ما أقوم به مع أولئك الأميّين الوظيفيّين الذي أدرّسُهم.

ربحت مرّتين متتاليتَين، أثناء فترة أعياد الميلاد، من الشركة التي استعانت بمجموعة منا بثمانية صنابير ملبّسة بالكْروم، جائزة تكافئ إنتاجيّتي العالية. قدمت واحدا منها إلى المحامي، عندما توفّيت زوجتُه بسبب مرض السرطان.

من جهة أخرى، كان سرطان زوجة المحامي طريقة لمعاينة الوقت وهو ينقضي بسرعة في السجن. لأنّه حتى إن لم يكن الوقت ينقضي بسرعة بالنسبة لنا، فإنّه ينقضي بسرعة بالنسبة للآخرين، وهذا يؤثر فينا، تماما كما يؤثّر انفصال زوجين صديقين في حياتنا الزوجية. يوما عن يوم، كانت أحوال أولْغا، هذا هو اسمها، تسوء، وجسد المحامي يضمر أمام العين المجرّدة كما لو أنّه هو العليل. وأسبوعا بعد آخر، كان يبدو أكثر هزلا لأنّ عضوا من أعضاء زوجته نهشته خلايا السرطان. وفجأة، رحلت.

وبسرعة أكبر من هذه، كانت نهاية زواج مارتا. كما لو أنّني نمتُ وهي تتزوّج، ولمّا فتحت عينيّ، كان انفصالهما في الطريق. وفي وقت وجيز، كان كل ذلك الحبّ العابر للأعراق في خبر كان. مثل أكلة خفيفة. وفي أقلّ من عامين، صارت من جديد زهرة جافّة من سنواتي الماضية. في البداية، اكتشفَتْ أنّه مدمن على شرب الكحول، بعد أن صار يتصرّف بعنف حين يسكر. أظنّ أنّ مارتا قد شدّها الحنين إلى تلك الفترة التي كنت أثقب فيها سقف شقّتنا.

حسب ما حكت لي هيلينا، قام الزوج الجديد بتكسير البيت عن آخره. «أتذْكُرُ تلك المجموعة من الأواني الخزفية التي كانت أمي

تستعملها فقط عندما يزورنا ضيوف؟» سألتني. «صارت شظايا. لقد كسر مائدة قاعة الأكل. كسر ساعة الصالة. كسر مرآة الغرفة». لحُسن الحظّ، لم يكسر أيّ عظم من عظام مارتا.

وكانت النتيجة المباشرة لكلّ هذا أنّ مارتا صارت تزورني كلّ يوم أحد، بل أكثر من هيلينا، التي أصبحت كثيرة المشاغل.

كانت تأتي محمّلة بأشياء كثيرة، من لحم، وبسكويت، وعجائن، وشوكولاتة، دون أن أطلب منها شيئا. في زنزانتي، كنت أنا من يملك بيت المؤونة المزود على أحسن وجه. أوزّع على الآخرين ما يزيد على حاجتي، ولذلك كان السجناء يعدُّونني لصّا طيّبا.

وسرعان ما عدنا معا، أنا ومارتا، إلى ما كنّا عليه في الأيام الخوالي، نجتر قطعة جبن، ونَثْرا جميلا، دون عجلة من أمرنا. الآن، بدل أن نكون في مطبخ بيتنا، كنّا نلتقي في غرفة الزوّار داخل السجن. وأصبح تواصلنا أكثر نجاعة، بعد أن كان تواصلا عرضيا. كما أنه صار أكثر تسلية. بل ذهبنا إلى حد تبادل بعض الأسرار. «تبادل» تلك فقط طريقة في التعبير. شخصيّا، لم تعد لي أسرار. لم يعد هناك من شيء فظيع يخصّني لم تنشره الصحافة. لكن هي حكت مشاهد حزينة من قصّة زواجها السريع، مثلما وقع يوم علق زوجها حينذاك، بعد أن استيقظا بعد أول ليلة من ليالي شهر العسل، وقال لها إنّها تبدو مثل حبّة زبيب. وأنّها بيضاء مثل جبن أبيض. «كان عليّ أن أسمع كلّ هذا من ذلك الأسود»، قالت. هكذا صارت اليوم تتحدّث عن زوجها السابق.

- أنت امرأة جميلة جدّا. قلتُ لأواسيَها.

أكيد أنّني بعثت لها بإشارة خاطئة. فور ذلك، قالت لي إنّه ما كان عليها أن تنفصل عنّي، وأنّني، في الواقع، أسرتها.

- أنتَ كلّ ما لديّ. أنت أبي وأمي. أنت أخي، وملاذي الآمن. قالت.

- لكنّي لست زوجك. أجبتُها.

حتّى أنا دُهشتُ لموقفي. لم يعجبني قطّ أن أعاكس مارتا. لكن فكرة تصالحنا كانت تبدو لي أنّها لا تقلّ عبثية عن بقائنا معا كلّ ذلك الوقت فيما مضى. كيف استطعنا أن نحافظ على ذلك الغلو في الحميمية طوال كل تلك السنوات؟ دون جنس؟ ولأي غاية؟

إن الانزواء غير الإرادي يغير قدرتنا على التخيّل. لا أحد هنالك يفكر في الحب أو الرفقة. إننا لا نحلق عاليا حين يتعلّق الأمر بغرائزنا. نفكر في المضاجعة، بالأساس. حياتي الجنسية، عليّ أن أعترف بذلك، كانت أكثر ثراء في السجن ممّا كانت عليه طوال مدّة زواجي. ولا أوافق دوني الرأي، حين كان يقول إنّ نشاطنا الجنسي كان لواطيّا بشكل ظرفي. لم يكن ثمّة تمييز بين الجنسين في ممارستنا. الجنسُ داخل السجن كان مسألة أنابيب وروابط. كان مجرّد التئام واستمتاع. كان فراغا يمتلأ. ثقوبا ونشاطا. لا شيء غير ذلك.

كل هذا لأقول إنّ الوقت ينقضي داخل السجن أيضا. لأنه، في الحقيقة، الحياة داخل السجن هي الحياة نفسها. دون زيادة أو نقصان. بل إنّنا نملك هناك قسطا مهمّا من الحرية؛ لأنّ من يتحكّم في المرء، خلف أسوار رأسه، هو نفسه بالذات. وذاك فضاء حرّ تماما، مع كلّ

الوقت الممكن كي نُسخّر أنفسنا لأجله.

مرّت بالضبط سنتان وسبعة أشهر من السجن قبل أن يحلّ يوم محاكمتي. قالوا إنّني كنتُ محظوظا جدّا. «منذ ثلاث سنوات وأنا أنتظر»، قال أحدهم. «منذ سبع سنوات وأنا أنتظر»، قال آخر.

أما أنا، فما إن وصلتُ حتى كنتُ على وشْك أن تبدأ محاكمتي.

8

كان لا بدَّ لي أن أرتكبَ جريمة قتل، أو بالأحرى كان لا بدَّ من أن تصطدم بي جريمة قتل حتّى أعرف روعة محاكمة من المحاكمات.

لم ألاحظ قبل ذلك كم كانوا مولعين شكليّا بالمآسي الإغريقية. لاحظوا: هناك دائما دراما أخطبوطية ودامية. وفي حالتي الخاصّة، جريمة قتل لها ثلاث صفات: دافع أخرق، وقسوة، وانعدام حظوظ الدفاع، بالإضافة إلى جريمة تشويه جثّة وإخفائها. هناك هيئة المحلّفين، كتلة بلون واحد تمثّل صوت المجتمع وصداه، مثل الجوقة الإغريقية. ونحن البطلان. شخصيتان رمزيتان تجسّدان الخير والشرّ. القاتلُ والضحية، بتعقيداتهما النفسية جميعها.

وليس من قبيل المصادفة أن يتسلّى الأمريكيون بهذا الموضوع، سواء في الصحافة كما في السينما. بل إنه من السهل جدّا أن نتسلّى بعالم المجرمين عندما لا نجلس في كرسيّ الاتهام.

لم يقع كلّ شيء كما أحكي في الرواية الآتية. فالطقس يعجّ بالقواعد التي كنتُ أجهلها أحيانا. أثناء الإدلاء بالشهادات، ليست هناك اعتبارات معيّنة. وحين يدخل الدفاع والاتهام في النقاش، في النهاية، لا تكون هناك جلسات استماع. لكن، كلّ ما أحكيه فيما يلي واقعي وحقيقي. وُضع في ترتيب غير صحيح.

أولا، تابع أعضاء هيئة المحلّفين شريط فيديو منزلي، يظهر فيه جاري وهو يرقص سكرانَ أمام مشواة لحم في حديقة بيت على

الشاطئ. صديقتُه الآسيوية، ببطنها الذي يشي بالحمل، تدخل المشهد، ترتدي بيكيني وتعانقه مبتسمة، كما لو أنهما معا يقومان بإشهار لصالح ماركة جديدة من الجُعَة. «كان سيشكّلان أسرة سعيدة»، قال المدّعي العام وهو يشير إليّ بأصبعه، «لو لم تصبهما فظاعة هذا الرجل».

بعد ذلك، عُرضت الصور. السيّد إبْسيلونْ مطويّ، داخل الدولاب. الساقان، اللتان تمّ ليّهُما حتّى تتّسع لهما الرفوف. تفاصيل اليدَين. تفاصيل جروح في الوجه. تابع أعضاء هيئة المحلّفين عرض سلسلة من الصور ذات جودة رديئة، أشاروا إليها بسهام ووصفوها بوساطة شروحات تتضمّن مصطلحات تقنية.

شعرت إحدى أعضاء هيئة المحلّفين بدوار أثناء الجلسة ممّا خلق بلبلة عامّة. «ليس هناك من سبيل لعدم فهم ما أصابك من غثيان»، قال لها المدّعي العام، كأنّه ممثّل يبحث عن تصفيقات الجمهور.

بعد ذلك جاء خبير يشتغل لحساب الطرف المدّعي، وأخذ ينبهنا، بوساطة قلمه، إلى وَذَمة هنالك، وكدمة هنا، وتوسُّف في الجهة العليا، في الصدر، وجرح آخر في الجلد المزعب على مستوى مؤخّرة الرأس. «لاحظوا، قال، إنّ الدم قد تخثر في هذه المناطق. والتخثرات لا تحدث إلا في الكائنات الحية». ممّا يعني أنّ عملية التقطيع بدأت والضحية لا تزال حيّة. وكان استنتاجه أن جاري مات بسبب نزيف ناتج عن تقطيع جسده.

بعد ذلك، دار الحديث حول شخصيتي فقط. دهشتُ لرؤية مديرة مدرستي، كارْمِنْ، تجلس في دكّة الشهود مع الادّعاء. لم تكن تُضمر

لي أيّ عداء، قالت مؤكّدة. بل، عكس ذلك، كانت تشعر بشيء من التعاطف تجاهي لأنّني كنتُ أعاملُها بطريقة مؤدّبة. أظنّ أنّها قبلت أن تلعب هذا الدور فقط لتضفيَ بعض التغيير على حياتها المملّة. على أيّ حال، فقد قدمَت خدمة كبيرة للمدّعي العام وهي ترسمُ لوحة قاتمة عن وضعية المدرّسين عموما، وعن وضعيّتي على وجه الخصوص. رأتني ذات مرة، أثناء مظاهرة إضراب في الشارع، أرمي شرطيا بالحجارة. صحيح أنّنا جميعا، في ذلك اليوم، رمينا بالحجارة رجال الشرطة الذين ألقوا علينا قنابل مسيلة للدموع لتفريقنا من أمام إقامة رئيس الولاية. لكنّ المدّعي العام شدّد على سياق الحدث، وعلى الأساتذة الآخرين الذين تصرّفوا بالطريقة نفسها. وصفني بـ»العنيف» و «العدواني»، واستغل شهادة المديرة ليقدم عني صورة شخص يرمي الشرطة بالحجارة بطريقة احترافية.

وقدّم عنّي فْرانسيسْكو، حارس العمارة، صورة شخص هادئ ومتوتر. كانت هناك أيام «أكون فيها هادئا» وأخرى «أبدو فيها متوتّرا». ثم قال -أيضا- إنّه لا يظنّ أنّه من اللائق أن تظلّ المدارس في حالة إضراب. فبسبب ذلك كان ابنه «لا يتقدّم في دراسته» وأنّني أنا، لقلّة ما يشغلني، قتلتُ جاري، في نهاية الأمر.

أدْلت مُنظّفة بيت السيّد إنْسيلونْ -أيضا- بشهادتها. قالت إنّها قد وجدتني هادئا جدّا حين اكتشفتنا، ولم يكن يبدو عليّ أيّ خلل عاطفي. وقالت إنّ ما جعلها تشكّ في أنّ «شيئا سيّئا» حدث هناك هو الرائحة، وليس تصرّفاتي. لولا رائحة الجثّة، لما كانت لتشكّ في أيّ شيء.

وأدْلى بشهادة مماثلة القفّال الذي صنع لي نسخة من المفاتيح لأدخل إلى شقّة السيّد إبْسيلونْ. حسب أقواله، فإنّ ما أثار انتباهه يومئذٍ هو «برودتي اللافتة للنظر».

كانت تلك أول مرة أرى فيها الأستاذ موريرا مينْدس يتجرّأ بتلك الطريقة، منذ أن توفّيت زوجته. «سوف ألقّنه درسا»، قال لي والرجل لا يزال يدلي بشهادته. حين نهض، وجاء دوره ليسأله، كان يبدو كأنّه خبير في الطبخ أمام طبق رفيع. لم يكن ينقصه سوى أن يتلمّظ شفتَيه، ثم قال:

- إن نَسْخ المفاتيح عمل شاقّ جدّا ودقيق. قال. فهل أنا على صواب؟

- لا شكّ في ذلك. أجاب القفّال، وهو يرسم ابتسامة فخر على محياه.

- منذ متى وأنت تمارس هذه الحرفة؟

- خمس عشرة سنة.

- لا بدّ أنّك تحظى بالتقدير والاحترام في الحيّ.

- ليس لديّ ما أشتكي منه.

- هل تعرف زبائنك؟

- نعم، أعرف الكثير منهم.

- وكم تستغرق من الوقت لصنع نسخة من مفتاح واحد؟

- بين أربعين ثانية ودقيقة واحدة.

- لا شيء أكثر من هذا؟

- في حالات نادرة.

- هل نادرة هي الحالات التي تحتاج فيها لأكثر من دقيقة كي تصنع نسخة من مفتاح؟

- لديّ سنوات طويلة من الممارسة.

- لكن هناك من المفاتيح ما يتطلّب وقتا أكثر. هلاّ أخبرتنا أيّ نوع من المفاتيح هي هذه؟

- إنّها المفاتيح الخاصّة. المفاتيح الرباعية، مثلا. يتوقّف الأمر على نموذجها.

- في حالة هذه المفاتيح الخاصّة، كم تحتاج من الوقت لإنجاز نسخة منها؟

- خمس دقائق، تقريبا، لكلّ وحدة.

- وهذا المفتاح -قال وهو يريه مفتاحه الخاصّ من مجموعة مفاتيحه- هل يعد من النوع الخاصّ؟

- يبدو لي مفتاحا عاديا.

- لو جئتُ إلى محلّك وطلبت منك نسختَين من هذا النوع من

المفاتيح، هل ينبغي لي، في المعدّل، أن أنتظر دقيقتين حتى تكون النسختَين جاهزتين؟

- بالضبط.

- مع إضافة دقيقة أخرى كي أدفع الحساب، على أكبر تقدير. إذن، يمكنني أن أستنتج من ذلك أن ثلاث دقائق هو الوقت الذي يستغرقه زبون ما في محلك لتصنع له نسخة من مفتاحيْن.

- الأمر ليس دائما كذلك.

- ليس كذلك؟

- يتوقّف ذلك على الزبون.

- تتبادل بعض الكلمات مع من تعرفهم من الزبائن.

- نعم. أحيانا.

- هل كنت تعرف مُوكِّلي؟

- لا.

- لا تعرف حتى وجهه؟

- لا.

- إذن، أنت تعرفت عليه يوم ذهب ليصنع نسخا من المفاتيح. أليس كذلك؟

- تماما.

- هل تذكر يوم حدث ذلك؟

- يوم 9. صباحا.

- في أيّ ساعة؟

- بين منتصف النهار والساعة الواحدة.

- أتصوّر أنّ كثيراً من الناس يتردّدون على محلّك. كيف تكون واثقا من أن موكّلي كان في محلّك في تلك الساعة؟

- لديّ ذاكرة قوية.

- ذاكرة قوية. هل تذكره وهو في محلّك؟

- تماما.

- هل يمكنك أن تحكي لنا كيف كانت تصرّفاته؟

- كان مضطربا.

- متوتّرا؟

- ليس متوتّرا. مضطربا. كان ينظر إلى الباب، كمن يخشى أن يفاجئه آخرون.

- وكيف كانت مفاتيح بيت الضحية؟

- مفتاح عادي وآخر من النوع الخاصّ.

- كم من المفاتيح طلب منك موكّلي أن تنسخ له؟

- مفتاحَين. نسخة من كلّ مفتاح.

- يمكن أن نستنتج، إذن، أنّ موكّلي قضى أقلّ من عشر دقائق في محلّك. هل تحدثتُما؟

- بعض الشيء.

- عن أيّ شيء؟

- لا أذكر التفاصيل.

- لديك ذاكرة قوية، ولا تذكر التفاصيل؟

- كان حديثا عاديا.

- أثناء ذلك الحديث انتبهتَ إلى أنّه كان مضطربا، وأنّه ينظر نحو الباب، كمن يخشى أن يفاجئه الآخرون، ثم لاحظتَ، طبعا، أنّ الأمر يتعلّق برجل يتمتّع ببرودة لافتة للنظر.

- تماما. يمكنني القول إنّني أعرف الروح البشرية. أعرف، وأنا ألاحظ شخصا ما، من أيّ طينة هو.

- موهبة، من دون شكّ. لكنّك، يا سيدي، لا تذكر ما قاله له لك موكّلي في تلك المناسبة.

- لم يكن ما قاله هو ما أثار انتباهي، بل طريقة تصرّفه. بشكل عام.

- فهمتُ. وهل تذكر ما قُلْتَه أنت له؟

- كيف؟

- إنك تقول لنا، يا سيّدي، إنك لا تذكر ما قاله لك موكّلي في تلك المناسبة. وأنّ ما أثار انتباهك هو تصرّفاته بشكل عام.

- تماما.

- إنّني أطرح عليك سؤالا مختلفا. هل تذكر، يا سيّدي، ما قاله لك موكّلي يومئذٍ؟

- كان حديثا عاديا، كما سبق وقلتُ.

- واعتذرتَ لموكّلي لأنك قضيت الوقت كلّه تقريبا تتحدّث في هاتفك الخلويّ. أتذكر هذا؟

ظلّ الرجل صامتا.

- أليس كذلك؟

كنتُ بنفسي قد حكيتُ هذا التفصيل إلى المحامي.

- ابنتُك هي التي اتصلت بك بينما كان موكّلي ينتظر. أليس كذلك؟

- لا أذكر ذلك تماما.

- إذن، سوف أُذكّـرُك بذلك. لقد أطفأت الهاتف واعتذرت لموكّلي، ثم حكيت له، بعد ذلك، أن الأمر يتعلّق بابنتك، التي انتقلت إلى الولايات المتحدة قبل خمس سنوات. أليس هذا ما كشفت عنه

لموكّلي؟

- لا أذكر هذا التفصيل.

- إنّ ذاكرتك، حسب ما نلاحظ، لا تسجّل كثيرا من التفاصيل المهمّة. هل يمكنك، يا سيّدي، أن تلقيَ نظرة على هذا إن تفضلت؟ سأله الأستاذ موريرا ميندس وهو يسلّمه ورقة.

نظر القفّال إلى الوثيقة بدهشة.

قال المحامي:

- هل يمكنك أن تقول لنا ما هذا؟

- إنّها بيانات مكالماتي الهاتفية.

- هل يمكنك أن تؤكّد لنا من اتصل بك صباح يوم 9، بين منتصف النهار والواحدة زوالا؟

تأخّر القفّال في الردّ، ثم قال:



- ابنتي.

- هل يوجد في هذه البيانات أثر مكالمة أخرى أجريتَها أو تلقّيتَها أثناء هذا الحيّز الزمني؟

- كلّا. قال منزعجا.

سحب المحامي الورقة من يد القفّال بطريقة مسرحية، ثم قال:

- لاحظوا جيّدا، يا أعضاء هيئة المحلّفين الأعزاء. إنّ موكّلي قد قضى عشر دقائق في محلّ القفّال. وبينما كان هناك، ظلّ هاتف هذا الرجل ملتصقا بأذنه، فوق كتفه، وهو يتحدّث مع ابنته التي تعيش في الولايات المتحدة. كان يتحدّث مع ابنته ويقوم في الوقت ذاته بنسخ المفاتيح. واليوم جاء ليحاول إقناعنا بأنه تمكّن يومئذٍ من أن يلاحظ، بموهبة من يعرف طبيعة الروح البشرية ويتمتّع بذاكرةٍ قوية، أنّ موكّلي كان هناك يخطّط لجريمته بكلّ برود. ولهذا الغرض استدعته النيابة العامّة. لأن هذه هي استراتيجية الادّعاء: استغلال الحكم الصادر من قبل بخصوص هذه القضية من لدن محكمة أخرى، أعني محكمة الصحافة، من أجل التأثير على المحكمة الحقيقية، محكمة العدالة. إنّ الصحافة تقدّم عن موكّلي صورة رجل بارد وفظّ خطّط لقتل جاره الصاخب. وهذا السيّد، الذي لم ينظر حتّى إلى موكّلي في ذلك اليوم، لأنه كان يتحدّث مع ابنته التي تعيش في الولايات المتّحدة في الوقت الذي كان يقوم بعمله، يأتي إلى هنا، كأنه ببغاء الصحافة، ليشوّش على هيئة المُحلّفين بمعلومات كاذبة.

كنتُ أعرف أنّ هفوة الادّعاء لا تعني نجاح الدفاع. لكنّي أذكر أنه يومئذٍ أصبحنا أنا والأستاذ موريرا ميندس صديقَين. كنتُ بدأت أنظر إليه بنظرة مختلفة، منذ وفاة أولْغا، زوجته. إنّ سرطان الآخرين له فعالية قوية في تحويل عدائنا نحو الآخرين إلى تعاطف معهم. لكنّي لم أصبح صديقا حقيقيّا للمحامي إلا في ذلك اليوم الذي نسف فيه أقوال ذلك القفّال.

9

«سوف أُنهي كلامي»، قال المدّعي العام، «لأذكركم أنه لو صدّقنا ما يريد دفاع هذا الرجل البارد والفظّ أن يقنعنا به، لكُنَّا بصدد القبول بنهاية العالم. لأنّ ما يريد أن يجعلنا نبتلعه هو عالمٌ من دون عدالة. من دون عدالة ليست هناك مساواة. من دون عدالة ليست هناك حضارة. من دون عدالة هناك واقع مريع، يسود فيه الشيطان وسط الفوضى».

كنّا في اليوم الثالث من المحاكمة وقد بدأ التعب يبدو واضحا على أعضاء هيئة المحلّفين. حين سمع كلمة شيطان، همس موريرا مينْدس في أذني: «إنه يراهن على وجود أغلبية من الإنجيليّين من بين أعضاء هيئة المحلّفين».

كنتُ بدوري مرهقا فلم أفهم رأيه. «المسألة سهلة» قال، «البرازيل بدأ يتحوّل إلى بلد إنجيليّ».[7]

المدّعي العام: «ما الذي نقوم به في هذا العالم من دون قانون حين يزعجنا أحد الجيران؟ نقتُله. وبعد ذلك، نقوم بتقطيع جثّته. إننا

(7) تُعدُّ المسيحية الكاثوليكية هي الديانة السائدة في البرازيل، غير أنّ البلد عرف في القرن العشرين انتشارا واسعا لمعتنقي المذهب البروتستانتي وخاصّة الحركات الإنجيلية القادمة من الولايات المتحدة على شكل بَعثات تبشيرية. (المترجم)

مثل قوم جُوج وماجوج الأسطوريّين[8]، الذين كانوا يقتاتون على لحم البشر، والأجنّة والجثث. نشبع ضربا كلّ مَن عرقلنا. نضع حدّا لحياة سائق بسبب مكان لركن السيارة. ولا نجد أدنى مشكلة في اقتراف هذا القتل. في هذا العالم المتوحّش، سنكون مثل سلالة ماجوج، حسب ما جاء في وصف هيرودوت[9]. سنشرب دم أول عدوّ من أعدائنا ممزوجا بالخمر، ونتّخذ من جمجمته قدحا لشرابنا. لكن قبل ذلك، سنسلخ جلد رأسِه ومنها سنصنع منديلا. لأنّه في هذا العالم الذي يحاول دفاع المتّهم أن يقدّمه لنا في حلّة علمية جميلة، لا نعيش صدام طبقات ولا صدام حضارات أو إيديولوجيات، بل حربا يخوضها كلّ فرد ضدَّ كلّ فرد. كلُّنا جميعا ضدّ الجميع. حربي أنا وحربك أنت. لأن هذا العالم، العالم الآخر، مبدئيا، هو مجرّد عدوّ. هل يُحدث جاري ضجيجا؟ أُقطّعُه إربا إربا وأضعه في حقيبة، ثم أرميه في القمامة. لماذا؟ طبعا، لأنّه في عالم هؤلاء الناس الحقد هو الذي يغذّينا. نأكل الدم ونشربه. ننام ونصحو ونحن نتغذّى على مرارة سوداء».

كان يلاحظُ اهتمامُ المدّعي العامّ بتصرّفات أعضاء هيئة المحلّفين، الذين كانوا يبدون الآن مستيقظين. كانت مارتا، هيلينا، وبارْبارا، وسط الحضور، يبدين اهتماما بدورهنّ.

---

(8) ثمّة عدّة إشارات إلى قوم جوج وماجوج أو (يأجوج ومأجوج) في التقاليد والكتب الدينية العبرية والمسيحية والإسلامية. وقد ذكر الكتاب المقدّس يأجوج ومأجوج في سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي: «وَيَخْرُجُ لِيُضِلَّ الأُمَمَ الَّذِينَ فِي أَرْبَعِ زَوَايَا الأَرْضِ: جُوجَ وَمَاجُوجَ، لِيَجْمَعَهُمْ لِلْحَرْبِ، الَّذِينَ عَدَدُهُمْ مِثْلُ رَمْلِ الْبَحْرِ». (20: 8). (المترجم)

(9) يصف المؤرّخ اليوناني هيرودوت في مؤلّفاته سلالة ماجوج مبيّنا همجيّتهم ووحشيّتهم. كما يذكر أنّهم كانوا يعيشون في منطقة تقع شمال البحر الأسود وكانوا يزرعون الرعبَ في سهوب جنوب روسيا عند بداية القرن العاشر قبل الميلاد. (المترجم)

ـ إنه ليس سيّئا. قلتُ لموريرا مينْدس.

ـ إنني أرى طاووسا مزهوّا بنفسه. أجابني موريرا مينْدس. انظر إليه كيف ينتقل من مكان إلى آخر.

المدّعي العام:

- ياجوج وماجوج، في سفر الرؤيا...

- ها قد ذكر الكتاب المقدّس. قال موريرا مينْدس.

المدّعي العام:

- ... إنه الشيطان بعينه. والشيطان يبدو جدّ مرغوب فيه في هذه العالم الذي يريد دفاع المتّهم أن يقنعنا به. لأنه فيها هذا العالم يقوم الشيطان بفحص نفساني ويكفّ عن كونه شيطانا ليتّخذ شكل مجنون. يا لَه من امتياز كبير! هذه هي خطّة الدفاع. لأن المسيح الدجال يستفيد من أنّه لا أحد، لا أحد إطلاقا، حتى أنْت وأنْت، يخرج سليما من فحص نفساني -قال وهي يشير إلى هذا العضو ثم إلى عضو آخر من أعضاء هيئة المحلّفين.

- إن المسيح الدجال، تابع قائلا، أي ياجوج ماجوج فيما نحن بصدده، ماكر كبير، وانتبه إلى أن الكائن البشري، بالنسبة لعلم النفس، ليس أكثر من مخطط بيولوجي، أي مجموعة من الخلايا العصبية

يمكن أن تدخل فيما بينها في تماسّ كهربائي. لو أنّنا جميعا خضعنا لتقييم طبيب نفساني، فلن ينجح أحد منّا في الاختبار الصحيّ. عن هذا، سيقولون إنه يهذي، سيتّهمون الآخر بنقص في مادة الليثْيوم؛ وسيسمون ذلك معتوها، والآخر منفصم الشخصية. في واحد، سيجدون اضطرابا ثنائي القطبَين، وفي الآخر أعراض الهلع. في هذا، هوسا وفي الآخر، ميلانكوليا. هذا، وذلك، والأخر، كلُّنا مجانين.

هذا تقريبا ما قاله المدّعي العامّ. ولم يعبّر عن ذلك بهذه بالكلمات. لاحظتُ أن عضوا من هيئة المحلّفين، وهو رجل غارق في عنقه، كان يحاول أن يكتم ضحكة.

ثم استأنف المدّعي العامّ كلمته:

- إن المسيح الدجّال يعرف أن أطباء النفس يعدون كلّ شيء مرضا. أن يكون المرء مُدرّسا معناه أن يعيش اضطرابات الانحطاط الاجتماعي. وأن يفقد وظيفته يعني الدخول في حالة اكتئاب. وقتل الجار يعني الصَّرَع. وكيف يتمّ علاج ذلك؟ بوساطة الأقراص. علاج لجلب النوم، والامتناع عن الطعن بالسكين وفعل الاغتصاب، وعدم الإحساس. إن الكائن البشري، في النهاية، بالنسبة لهؤلاء الناس، هو مجرّد مستودع عضوي للأقراص. لا بدّ أن أضيف -أيضا- أن استراتيجية الدفاع لم تأت بأيّ شيء أصيل للدفاع عن هذا القاتل. إنكم لا تتصوّرون العدد الهائل من السفّاحين، مثل هذا المُدرّس، الذي يجلس في كرسيّ الاتهام، والذين يعلنون أنفسهم مرضى عقلانيين. إنّنا نعاني من الصرع، يدّعون. ويأتي هنا مختصّون، كما

سترون بالتأكيد أثناء هذه المحاكمة، ليحاولوا إقناعنا بأن هؤلاء السادة الذي يقتلون الصديقة، والجار، والشريك، والمومس، بالتقسيط كما بالجملة، ليسوا قتلة، بل يعانون من اختلالات ذهنية. المساكين. إنهم يأتون إلى هنا بفحوصاتهم ومصطلحاتهم العلمية المعقّدة ليؤكّدوا لنا أنه تمّ الكشف عن المشكل في المراكز الحلقومية العميقة. هؤلاء المتخصّصون الذي يداوون الحياة، ويختزلون كلّ شيء في اشتباكات عصبية وثقوب في رؤوس بلهاء. ويعالجون أفظع مجانيننا كما لو كانوا أطفالا لا يعرفون ما يفعلون. لذا، فإنّني أسألكم أيّها المحلَّفون الأعزاء: أين هو الحقّ؟ أين هو القانون؟ أين هو العقاب؟ لأنه، بالنسبة لهؤلاء الناس لا يوجد صواب ولا يوجد خطأ. لا توجد خطيئة. لا يوجد ظلم اجتماعي. لا وجود لعدالة البشر. فقط يوجد المريض والسليم. العافية والمرض. لا أحد يتحمّل ذنب أيّ شيء. إنه ذنب أعضاء الجسم. وقانوننا أكثر عبثا من التحليل النفسي لهؤلاء القتلة، لأنّه يصدق هذا الحديث المبنيّ على الصَّرع. هذا الرجل، هذا الوحش، كان يعد طوال حياته مسؤولا كي يدرس التمثيل الضوئي في مدارسنا. وقد تعاقدت معه الولاية لأنه كان مناسبا للوظيفة ومؤهّلا لمزاولتها. هذا الرجل تبيّن أنّه كان يتمتّع بقواه العقلية كاملة ليكون أستاذا، وأبا وزوجا. اليوم، لكي يؤدّي ثمن الجريمة التي ارتكبها لم يعد واعيا؟ أيّ تشريع هذا الذي يتركنا دون حماية؟ كان المُدّعي العام يسأل. إن نظامنا القضائي يسمح لأمثال هذا السفاح العنيف بالعودة إلى الشارع. وغدا أو بعد غد، سيلج هذا الذي يعاني من صرع مزيف إلى قاعة السينما ويقتل بريئَين آخرَين. دون إرادته. لأنّه نسي أن يتناول ذلك الدواء الذي يلغي غريزة القتل. فكيف هو حالنا؟ ما علينا أن

نفكّر فيه هنا، أيّها السادة، ليس هل هناك ثقب في قشرة الدماغ الأمامية للقاتل، بل إن كان بإمكانه أم لا أن يعود ليرتكب فظاعات.

أثناء الخطاب الأخير الذي ألقاه المدّعي العامّ، لاحظتُ أن صديقَةَ جاري كانت تتحاشى نظراتي، لكن أمّها كانت دائما تبحث عنّي. الأولى تهرب منّي، بينما الثانية تطاردني. لمْ أكن أرغب في الأمر، لكنّ عينيّ لا تطاوعاني، وترفرفان عبر الجمهور الحاضر، وحين أنتبه للأمر، كانتا هناك تطاردان تلك التي تهرب مني وتهربان من تلك التي تلاحقني. كما في لعبة الظهور والتخفّي. لعبة المواجهة والتجاهل. فقط حين رفع القاضي الجلسة تمكنت والدةُ السيد إبسيلونْ، أخيرا، من القبض على عينيّ. بقينا نواجه بعضنا للحظة قصيرة. حاولت أن أشيح عنها بنظري، لكن بعد فوات الأوان. فجأة، كانت قد استقرّت بداخلي، في أعماق ذاتي، برغبتها الصارمة في العدل.

لم أنم تلك الليلة تقريبا. لم تكن تلك العينان تبرحان ذهني. كانت عيناها حُكما في حدّ ذاتهما. بطريقة ما، جعلاني أرى نوعا من الحقد كنتُ أجهله. حقد من دون أحلام. شرس ودون جدوى. لا فائدة منه. حتى لو أن تلك المرأة انتقمت لموت ابنها، فلن تستطيع أبدا أن تطهر كلّ ذلك الغضب. كان محكوما عليها أن تكرهني لما تبقى من حياتها. سوف يستمرّ حقدها، حتى لو حكموا عليّ بالسجن المؤبّد أو الإعدام فوق الكرسيّ الكهربائيّ. إن التفكير في هذا الأمر، حتّى يومنا هذا، يملأ قلبي حزنا.

10

ـ **ها نحن الآن في المرحلة النهائية.** قال موريرا مينْدس، في ذلك اليوم. كان هو اليوم السادس من المحاكمة، وقبل أن يصعد إلى المنبر، طلب منّي أن أحسن من تعبيري.

ـ لا تضحك. لا تتّخذ هذا التعبير اللامبالي. قال لي. ثم أضاف:

ـ أرجو أن يكون أعضاء هيئة المحلّفين صبورين معي، لأننا سوف نقدم، كدليل من أدلة الدفاع، رسوما متحركة من سلسلة بوكيمون. قال وهو يثير الضحك في صفوف الحاضرين.

طالب القاضي بالصمت.

ـ يتعلّق الأمر بالحلقة التي تحمل عنوان «Electric Soldier Pirygon»، التي بثّها التلفزيون الياباني يوم 16 ديسمبر من سنة 1997.

هكذا بدأ عرض الرسوم المتحرّكة، والبوكيمونات في مهمّة ليلجوا آلة معطّلة بهدف إصلاحها، بمساعدة أحد العلماء.

بعد بضع دقائق، سأل المدّعي العام إن لم يكن بإمكان القاضي أن يعيد النظر في الطلب، الذي سبق للدفاع أن تقدّم به، وأن «يضع حدّا» لما أسماه «هدرا للوقت».

لكنّ المحامي لم يستسلم للأمر.

ـ إنّه دليل مهمّ بالنسبة لدفاعنا، سيّدي القاضي. ثم أردف:

ـ انتبهوا، من فضلكم، إلى مشهد الانفجار الذي سوف يحدث لاحقا.

حينئذٍ رأينا، على الشاشة، مشهد انفجار صواريخ تمثّلها لقطة من الأضواء الزرقاء والحمراء تومض بشلّ متقطع، وبوتيرة مجنونة.

أوقف موريورا العرض بعد هذه اللقطة، ثم قال:

- ربّما يكون الكثير منكم قد وجد هذا المشهد النهائي مزعجا. بل من المحتمل جدّا أن يشعر أحد الحاضرين هنا بآلام في الرأس أو غثيان في غضون بضع دقائق. في اليابان، وبعد نصف ساعة على بثّ هذه الرسوم المتحرّكة، استقبلت المستشفيات ستمئة وخمسة وثمانين طفلا».

ثم تابع وصفه لما حدث لليابانيين. بعضهم شعر بدوار، وآخرون تقيّؤوا. بعضهم فَقَدَ البصر مؤقتا وآخرون تعرّضوا لنوبات صرع.

- وهذا هو ما يهمن هنا، سيّدي القاضي، إنها «صدمة البوكيمون» كما نسمّي اليوم هذا الحادث. مرّ وقت طويل قبل أن يربط المتخصّصون نوبات الصَّرع التي أصابت ستمئة وخمسة وثمانين طفلا في اليابان، بهذا العرْض الذي تابعتموه الآن. اليوم، بات من المؤكّد أن مشهد انفجار صواريخ البوكيمون اشتغل مثل «نوبة رهاب ضوئي» بالنسبة للأطفال الذين عانوا من نوبات الصرع. ولا داعي لأذكر بأن هذا الأمر كان كارثيا بالنسبة للمنتجين.

في تلك اللحظة بالضبط، نهضت امرأة من أعضاء هيئة المحلّفين

-وهي المرأة نفسها التي شعرت بدوار مع بداية المحاكمة، حين تمّ عرضُ صور الضحية- شاحبةً، ودون أن تجد وقتا لمغادرة دكّتها، تقيأت على يديها.

وبينما كنّا ننتظر أن يأخذها الشرطي إلى المشفى، نبّه القاضي السيّد المحامي، وقال له:

- عليك، يا سيدي، ألا تُعرّضَ أعضاء هيئة المحلّفين لموادَّ قد تنطوي على ضرر محتمل.

بيد أنّ المحامي كان مبتهجا. همس في أذني.

- إنّه أحسنُ ما حدث لنا.

مع استئناف الجلسة، قال موريرا مينْدس إنّه عكس ما قد يتصوّره كثير من الحاضرين في تلك القاعة، فإن تلك الحلقة من حلقات بوكيمون كانت لها علاقة وثيقة بحالتي الخاصّة. فكما أنّ حوافز بصرية تسبّبت في نوبات صرع لدى أولئك الأطفال، فإنّ الضجيج الذي لا يُطاق القادم من شقّة السيد إبْسيلونْ هو المسؤول عن التشنّجات التي أصابت دماغي، وأحدثت تغيّرات في تصرّفاتي، وأدّت بي إلى المأساة التي نحن بصدد النظر في حكمها. ثم قال:

- كثير منكم، هنا، يظنّون أن المريض بالصرع هو من يعاني من تشنّجات عنيفة ويسقط على الأرض، يتخبّط، يتلوّى، يرغي، ويفقد وعيه. لكن، هناك أنواع متعدّدة من الصرع تختلفُ أسبابها.

حينئذ، نادى شاهدنا الأول. وهو طبيب أعصاب ذائع الصيت من

جامعة ساوْ بَاوْلو، الذي قدّم عرضا مستفيضا في الموضوع، بينما كان يعرض صورا للدماغ البشري على إحدى الشاشات. شرح أنّ الصرع يمكن أن يصيب عدة أجزاء من الدماغ، وأنّه من العادة أن تحدث أولى النوبات في الطفولة أو بعد سنّ الخمسين، كما هو الحال بالنسبة لي. ثم أضاف إنه، نظرًا لما يُسبّبه من خلل في نشاط الدماغ، فإنّ الصرع يمكن أن يُحدث تغييرا في أفكارنا، وإدراكنا الحسّي، وفي تصرّفنا وذاكرتنا بطريقة مؤقتة أو دائمة.

بعد ذلك، نادى موريرا مينْدس على الطبيبة النفسية التي وقعت التقرير الخاصّ بحالتي لتدلي بشهادتها.

«إنّنا نستعمل مصطلح (متلازمة الغروب) للحديث عن الحالات التي تشبه حالة المتّهم»، قالت.

طريقتها في عرض المسألة كانت مغرقة في التفاصيل التقنية ومملّة، لكن حسن وجهها جعل انتباه أعضاء هيئة المحلّفين مشدودا إليها. وعموما، قالت إنني أملك شخصية متقلّبة، بسبب المرض.

كما تمّ عرضُ رسوم بيانية تصوّرُ ما أعانيه من عدم انتظام في ضربات القلب، كشفوا عنها بوساطة أقطاب كهربائية ذات منظار.

كنتُ أبدو مخيفا وفق ذلك الوصف. بل ينبغي أن أقرّ أنني شعرت بالخوف من ذاتي. فجسدي، حسب ذلك الوصف، كان مأوى لحيوان غريب. كنتُ متقلّبا، وتسيطر عليّ اندفاعات غريبة. الامتياز الوحيد في حالتي هو أنني لم أكن أتعرّض لنوبات ولا أرغي. لكن هذا الأمر لا يجعلني قيد أنملة أقلّ صرعا من المصابين العاديين بالصرع. كنتُ

مريضا من النوع المجنون. مُعفى من تحمل المسؤولية. مع إمكانية أن أقوم بفعل القتل يصعبُ تقييمها.

«من الممكن ألا يتعرّض لحادث كهذا الحادث الذي جاء به إلى هنا»، قالت الطبيبة النفسية. لكن العكس كان ممكنا أيضا. ممّا يعني أنه كان أمرا محتملا.

«من حُسن حظّ هذا الرجل أنه يعيش في البرازيل»، قاطعها المدّعي العام. «في إنجلترا، حتّى الصرع لن يخلّصه من السجن».

وهو يتعرّض للمعاكسة، كان موريرا مينْدس يتصبّب عرقا وتفوح منه رائحة الثوم:

- إنك، حضرة المدّعي العام، تسخر من التقدّم العلمي الذي يعترف ببعض المجرمين بوصفهم مرضى عقليّين.

- وكيف لنا أن نكون متأكّدين من أن هذا الأستاذ لم يتظاهر بالمرض أثناء الفحص النفسيّ؟ تساءل المدّعي العام.

وشرحت الطبيبة الشرعية أن الفحص النفسي يتوفّر على شروط تسمح بتقييم فرضية التظاهر بالمرض. حتّى النائب العام لم يطلب منها أن تخوض في شرح ذلك، لأنه حتّى لو فعلت، لن يفهمها أحد. وهذه هي سلطة التخصّص. نظرا لجهلنا، فقد لزمنا الصمت. والمسألة كانت محسومة بالنسبة لي.

«من الناحية العلمية»، قالت لأعضاء هيئة المحلفين، «إن الصرع ليس مرضا، بل هو عطب يصيب خلايانا العصبية، التي تدخل في

تماسّ كهربائي بعد أن تتعرّض لتحفيز ناتج عن شحنة كهربائية».

هذا أمر منطقي، فكّرت وأنا أنظر إلى الثآليل بينما كنتُ أرسم كويرات على الورقة أمامي. الحقدُ شحنة كهربائية، كتبتُ إلى جانب الرسوم.

الأستاذ موريرا مينْدس:

- ما اسم ذلك النوع من الصرع الناتج عن الضوء كذلك الذي أصاب الأطفال اليابانيين؟

جواب:

- صرَع الصورة. أو صرَع الرُّهاب الضوئي.

الأستاذ موريرا مينْدس:

- هل بإمكاننا أن نؤكّد أنّ هناك عوامل أخرى تشتغل مثل أزْناد تُطلقُ شرارة الصرع؟

جواب:

- نعم. لدينا الصرع السمعي، الناتج عن الأصوات وأنواع مختلفة من الضجيج.

الأستاذ موريرا مينْدس:

- هل يمكن أن نقول، إذن، إنّ أنواعا معيّنة من الصخب والضجيج يمكن أن تحدث أزمات صرع؟

جواب:

- نعتقد ذلك. نعم، ما دامت هناك نزعة وراثية نحو ذلك الأمر.

الأستاذ موريرا مينْدس:

- هل هناك، إذن، أساس علمي يجعلنا نعتقد أن شخصا ما يمكن أن يتعرّض لنوبة صرع بعد تعرّضه لتوتّر سمعي؟

جواب:

- نعم. إنّ الأوساط العلمية قد انكبّت على دراسة هذا الموضوع، ليس في البرازيل فحسب، بل في العالم كلّه. لقد أنجزت جامعة إلينُوي الأمريكية دراسة ممتازة حول هذا الموضوع.

الأستاذ موريرا مينْدس:

- هل يمكنك، يا سيّدتي، أن تحدثينا عن الأبحاث التي يتم إنجازها حاليا في البرازيل في هذا الاتجاه؟

جواب:

- منذ سنوات ونحن نجري دراسات على ضفادع لها نزعة وراثية نحو الصرع. في تجاربنا، نُخضع بعض أنواع الجرذان وحيوانات الهامستر التي لها نزعات وراثية نحو الصرع لمحفزات صوتية عالية الحدّة.

المدّعي العام:

- وماذا يحدث لهذه الجرذان؟

جواب:

- تركل بعنف، تقفز، وتهاجم. ومعظمها تدخل في نوبات تشنّج.

الأستاذ موريرا مينْدس:

- لقد وقَّعْتِ، يا سيّدتي، التقرير النفسي الخاصّ بموكّلي. في نظرك، هل يمكن أن يعاني من صرع سمعي؟

جواب:

- تماما.

الأستاذ موريرا مينْدس:

- من وجهة نظر علمية، هل من الممكن أن يكون الضجيج الذي كان يُحدثه جار موكّلي قد كان بمثابة الزّناد الذي أطلق شرارة هذه المأساة التي تُعرض أمام أنظارنا هنا؟

جواب:

- بالنظر إلى سجل المتّهم، والتغير المفاجئ في تصرّفاته، وإذا أخذنا أيضا بعين الاعتبار التقارير الطبية التي تمّ تقديمها، فإنّني لا أشكّ في أننا أمام حالة من حالات الصرع السمعي.

كان من المثير ملاحظة ردّ فعل أعضاء هيئة المحلّفين. كانوا ينظرون إلي الآن بطريقة أخرى، وبتقدير أكبر. إن بعض الأمراض،

يجب أن نقول ذلك، تمدّنا بالخلاص.

تأسّفت لعدم حضور دوني هناك. لقد كان ينتقد كثيرا استراتيجية دفاعي. «لو كُنْتَ سويديّا وجرت أطوار محاكمتك في السويد، لكان الأمر مختلفا»، كان قد قال لي. «إن أطروحة الجنون المؤقت في البرازيل ليست ذات مصداقية لأننا متخلّفون، وهذا مرض من أمراض العالم المتقدّم. في السويد، المسألة الأساسية المتعلّقة بالنجاة أمر واقع. هناك توجد فسحة للجنون. وفي سويسرا، أيضا. فالجنون مرحلة متقدّمة من مراحل الحضارة. لكن، هنا في البرازيل، علينا أن نهتمّ بالبقاء على قيد الحياة، قبل أن نهتمّ بالجنون. تخلّفنا الكبير لا يسمح بأن تصيبنا بعض الأمراض النفسية. لماذا لا يدخل المراهقون هنا إلى المدارس وهو يرمون الناس بالرصاص ويقتلون كما في الولايات المتحدة؟ فقط، لأن مراهقينا ليسوا في المدرسة. إنهم في الأحياء الهامشية، يبيعون المخدّرات. يقفون عند علامات المرور، ويعتدون على المارّة. في وسط المدينة، يستهلكون المخدّرات القوية. أتذكّر يوم كان الإنسان البرازيلي يمشي حافي القدمَين؟ فجأة، بدا وكأنّ ثورة الأحذية قد حدثت. انتعل الجميع أحذية. أحذية بكل الألوان، والأشكال، ظهرت في بلادنا. هكذا هو التقدم. يأتي الحذاء بعد الملبس. ويأتي الملبس بعد الأكل. والعجائن بعد الدجاج. قضينا عقودا لم نعرف أثناءها ما هو الدجاج. أوَلَيْسَ الدجاج اليوم حاضرا في موائدنا إلى جانب الرُّز والفاصوليا؟ إننا نستهلك الدواجن لأن البرازيل في تقدّم. ومع أن لا شيء ممّا أذكره الآن من أمثلة له قيمة قانونية، بعد أن عرف البرازيل تراجعا. لقد عدنا إلى فترة ما قبل

الدجاج. وما قبل الحذاء أيضا. لكن ما أريد قوله إنّنا بحاجة لنسدّ رمق جوعنا، ونتّخذ لأجسادنا لباسا ولأرجلنا نعالا، ونتوفّر على الحد الأدنى من الحاجيات، قبل أن نصبح مجانين».

هذا ما كان يظنّه دوني. في رأيي، لقد سجّل موريرا مينْدس هدفا خالدا. حتّى القاضي بدا أكثر لطفا.

بَيدَ أنّ النقطة الحاسمة من المحاكمة لم تحُن بعدُ. تمكّن موريرا مينْدس بالفعل من إيقاظ أعضاء هيئة المحلّفين بمساعدة آرْثور، صديق بارْبارا، الذي أعدّ في الأستوديو مادة قدّمناها في المحكمة، وهي أصواتُ أثاثٍ يُسحب، ضحكات، خطوات أرْجل، قدور تقرع، أعقاب أحذية، أبواب ونوافذ، ركلات في الكرة. مُلخّصٌ صوتيّ يمثّل جحيمي، بصورة إجمالية.

لكنّه قبل عرض الشريط الصوتي، طلب أن يُخْرجوني من القاعة «نظرا لحالتي الصحية». ومع ذلك، استطعتُ من الخارج، أن أسمع ردود الحضور، المنزعج بما تلقّاه من قصف صوتي. عندما عدتُ، كان يقول إنّ ذلك الضجيج، العادي حين نقومُ به نحن، نشعر به كما لو أنه جحيم خالص حين يقوم به الآخرون. «إننا نصبح عُزَّلا أمام الضجيج»، قال. لقد قيل الكثير عن قوة الصُّور وأثرها في عواطفنا. نمنع أبناءنا من متابعة مشاهد عنيفة. ونضع في الأفلام عبارة «يمنع مشاهدته على الأشخاص الذين تقلّ أعمارهم عن 18 سنة». نعرف أن الصُّور يمكن أن تُلحق أضرارا بمشاعرنا. لكننا لا نقدّر قوة الضجيج. بل إنّنا لا نأخذ بعين الاعتبار أننا لا نتوفّر على الأدوات البيولوجية لتجنّبه. إن الضجيج

يتسرّب إلينا كما يدخل الهواء إلى رئتَينا. لا مناصَ لنا من ذلك. كان الفيلسوف شوبنهاور يقول إنّ الضجيج تعذيبٌ للإنسان المفكّر؛ لأن الضجيج يحرمنا من القدرة على التفكير المنطقيّ. والصمت هو أساس بناء العقل، والمعرفة، والراحة، والصحّة. الصمت هو القاعدة ودعامة البناء. الضجيجُ يشتّتنا شظايا، ويغرس الجنون في أنفسنا. والحقيقة أنّنا نعيش في عالم تمّ فيه القضاء على الصمت. لم يعد هناك من صمت في مدينة مثل مدينتنا. فمدن مثل مدينتنا أصبحت ضارّة وتعاني من هستيريا صوتية. هناك موسيقى في المصاعد والمتاجر الممتازة. في الدكاكين والحدائق. عندما يقتحم الضجيج بيوتنا، ويغزو هدوءنا، يتصرّف مثل لصّ، يسرقنا وينتهك حرمتنا، دون شفقة. يأخذ منا أعزّ ما لدينا: هدوءنا وعقلنا. ولا ندرك حجم شرّ الضجيج إلا عندما تحدث مأساة كهاته التي أصابت موكّلي وتطفو على السطح».

ثم قال، لاحقا: «لدينا جميعا رغبات قاتلة، لكن هذا لا يعني أنّنا مجرمون محتملون. فبين أفكارنا القاتلة وجرائم القتل ثمّة طريق طويلة. قفزة كبيرة، كما يقول فرويد. علينا أن نقوم بخطوة عملاقة كي نخرج من المستوى الأول لنسقط في المستوى الثاني. من منكم لم يرغب مرة في موت سائق متهوّر، وهو في زحمة حركة السير؟ من منّا لم يرغب قطّ في الزجّ في الجحيم بشخص أبله يعرقل حياته، أمام صندوق الأداء في الصيدلية؟ إننا نعيش هذه الجرعات الصغيرة من الحقد الحضري الذي لا مناص منه في زحمة المدن الكبرى. جرعات حقد بريئة، تمر كأنّها سحابة صيف. لا تدمّر حياتنا المألوفة، ولا أدمغتنا. لكن حسب الطريقة التي قدّم لنا بها الادّعاء المأساة التي

ننظر في حكمها، فإنّ موكّلي يبدو إنسانا متوحّشا، لا يستطيع، مثل معظمنا، أن يسيطر على غرائزه التدميرية حين يكون خلف المقود. حسب الادّعاء، فإنّ موكّلي لا يمكنه أن يقود سيارة لأنه يعرض للخطر حياة السائقين في المدينة. لكن، إنّنا لسنا هنا بصدد الحديث عن هذا الأمر. ولا يتعلّق الأمر بجرعة أخرى من جرعات الحقد المألوف. فالحقيقة الطبّية لموكّلي مختلفة تماما. إنّ الأمر هنا يتعلّق بمرض. وبواقع منحرف، يقوم بدور الزّناد الذي يطلق شرارة هذا المرض».

كان أدائي أكثر من رائع، قال لي موريرا مينْدس، بعد أن أجبت عن الأسئلة التي طرحها عليّ أعضاء هيئة المحلّفين. أجبت عنهم جميعا، بَدءا من المحامي الذي يدافع عن قضيّتي، ومرورا بعدّة أعضاء من هيئة المحلّفين. وأراد المدّعي العام بدوره أن يسألني، لكنّ موريرا مينْدس كان قد مدّني بتوجيهاته. «لن نلعب دور المهرج أمام هذا الرجل السادي». يظنّ موريرا مينْدس أنّ أيّ مدّع عامّ هو رجل ساديّ. «لا يشغل أحد وظيفة مدّع عام بمحض المصادفة. ولا يكون بالمصادفة طبيب أسنان أو محصّلَ ديون. إنها مهنٌ تتطلّب ممارستُها قسطا كبيرا من السّادية».

ولنعد إلى ما يهمّنا: فعلا، كنتُ متميّزا في أدائي. استمع إلي الجميع بانتباه ونظروا إليّ بالفعل. حتى في حجرات الدرس لم أتألق بتلك الدرجة. بل لم أكن مضطرا لأكذب. قمتُ بما أمرني به موريرا مينْدس، فحكيت أنّ بعض الأصوات كانت تهدّئني، كما أنّ بعض الكلمات كانت لها تلك القوة، وأنّني كنت أحبّ أن أضمّها وأفرّقها إلى عائلات صوتية أو دلالية، كما يفعل الشعراء. وأنني كنت أحبّ

قصائد الشعر. وأن أصواتا أخرى كانت لها قوة معاكسة، تتسبّب فيما يشبه وخزا يسري بداخلي، وتحدث قلقا يترك فمي جافًا. وأن بعض الأصوات كانت تُثير معدتي، لكن ليس لدرجة تجعلني أتقيّأ. أمّا ما يتعلّق بالجريمة، فإنّني لم أقتل أحدا. خرجت الرصاصة من السلاح، قلتُ. وتعرّض جاري لسقطة قاتلة. وأنّني لا أذكر شيئا يتعلّق بتقطيع الجثّة. وأنه منذ أن بدأتُ أتناول الأدوية، أصبح كلّ ذلك من الماضي. حتّى الضجيج. وأنّ الأدوية، في حالتي، لعبت دور الأذنَين بالنسبة للكلب. كانت تكتم الأصوات. وأستطيع اليوم متابعة برامج التلفزة في السجن دون أن أنزعج من أصوات المعلّقين الرياضيين أو الوصلات الإشهارية.

مارتا، التي تحدثتْ من قبلي، كذبت كثيرا. أعني أنّها كذبت أكثر منّي. لأنني لم أكذب. بالكاد بالغتُ بعض الشيء. لكن مارتا لم تقل الحقيقة. أو على الأقلّ، لم تحدثني قطّ عمّا أدلت به هناك. وأنّني، أحيانا كنتُ لا أستطيع أن أفهم ما يُقالُ من حولي. وأنّني أقول، في بعض المناسبات، أشياء لا معنى لها.

- هل بسبب التوتّر الصوتي؟ سأل موريرا مينْدس.

كلّ ما قيل هناك كان مرتبطا بهذا الموضوع، لدوافع استراتيجية. أجل، كانت تؤكّد. أجل، أجل، أجل. كأنها عروس في الكنيسة، توافق على كلّ شيء. قالت إن عيناي، في مثل تلك الحالات، كانتا تنتفخان، وتتمددّ قزحيتَيهما، ويشحب وجهي كما لو أن الدم يهرب من جسدي.

كما ذكرت ابنتُنا هيلينا وقائع كانت غريبة عنّي. قالت إنّني كنتُ،

طوال فترة طفولتها ومراهقتها، أباً وديعا ومتفانيا. وأن الشيء الوحيد الذي كان يجعلني أفقد أعصابي هو صوت المسلسلات المتلفزة، ولهذا السبب لم تكن هي ولا أمها تستطيعان متابعتها بحضوري، دون أن أنفعل غاضبا بسرعة.

هذا كلّه، طبعا، بعد أن أنكرْنا كلّ التُّهم. أنْكرنا كلّ شيء. ولم نُقرّ إلا بما كان ضروريا، نظرا لوجود الأدلة. اعترفنا بصنع نسخ المفاتيح واقتحام المنزل. أبدينا كفاءة كبيرة بهذا الخصوص.

كنا على درجة كبيرة من الثقة، عندما اختلى أعضاء هيئة المحلفين للتصويت. «هناك شيء أنا واثق منه: لقد زعزعنا قناعات هؤلاء الناس»، قال لي موريرا ميندس.

كانت هيلينا ومارتا تبدوان أكثر ارتياحا. وبعثت لي بازْبارا بقُبلة من وسط الحضور، التقطتُها في الهواء وأرسلتها إليها من جديد، كما لو كانت كرة يد.

عندما عاد أعضاء هيئة المحلّفين، لاحظتُ أن لا أحد منهم نظر إليّ. وفي ثوانٍ معدودة حسم كلّ شيء. اعتبروا أن الحجج الطبّية لم تكن كافية.

بخمسة أصوات مقابل صوتين، قرّروا إدانتي.

لا بدّ أن ذلك الرقم كان في ذهن القاضي؛ لأنه كان سريعا في النطق بالحكم: أربعة عشر سنة وعشرة أشهر من السجن داخل نظام مغلق.

خاتمة

بلغ عدد الأحكام التي نظر إليها أعضاء هيئة المحلّفين ستة أحكام:

إن كنتُ أطلقتُ الرصاص على الضحية قصدا أو عن طريق الخطأ.

إن توفيت الضحية جرّاء أفعالي.

إن قمت بتلك الأفعال وأنا في كامل قواي العقلية أو في حالة جنون.

إن كانت هناك إمكانية الدفاع من لدن الضحية؛ و

إن قطّعتُ الضحية حيّة أو ميّتة.

إن كان ينبغي أم لا تبرئتي من هذه الجريمة.

من مجموع العقوبات الصادرة في الحكم، كانت سنتان وعشرة أشهر جزاء على جريمة تدمير الجثّة.

لم أجد أنّ الحكم كان عادلا. لأسباب تختلف عن أسباب موريرا ميْندس. نعرف جميعا أنّ هناك جرائم عاطفة وجرائم عقل. إن كنت ارتكبت جريمة ما، فهي تندرج في فئة ثانوية تقع ضمن جرائم العقل، جريمة قياس منطقيّ، إن صح التعبير.

أنا من سحبتُ البساط.

كان السيد إبْسيلونْ فوق البساط.

مات السيد إبْسيلونْ.

في الحقيقة، أنا لم أرتكب جريمة بل خطأ، وأظنّ، إلى يومنا هذا، أن الحكم كان غير متناسب مع الخطأ.

عندما خرجتُ، مصفّد اليدين، كان حشد من الناس أمام الباب. استقبلوني بالتصفيق وصيحات الاستنكار.

هي -أيضا- كانت هناك، روبْيا ماريّا. هذا ما حكت لي في أولى رسالة تلقيّتها منها بعد الحكم عليّ. «كنتُ أريد أن أراكَ من كثب»، قالت لي في رسالتها.

كانت روبْيا ماريّا، مثلي، أستاذة، لكنّها تركت التدريس منذ مدة «لأنني لست مهرجة ولا شيء من هذا القبيل». أربعون سنة، مطلّقة، تملك محلّا صغيرا لبيع البوظة في ساوْ ميغيل باوْليشْتا.

وجاءت رفقة الرسالة قصاصةٌ من جرائد تلك الفترة التي سُجنتُ فيها، وبها مادة صحفية تحت عنوان «أستاذ يقتل، يقطع ضحيّته بالمنشار ويحتفظ بها في الدولاب مدّة خمسة أيام».

«منذ أن رأيتُ صورتك أول مرة وأنا أتابع قضيّتك من كثب»، كتبت لي.

«هل يمكنني أن أقرأ»، سألني دوني في تلك المناسبة. لم يكن هناك من داع لرفض طلبه. «انظر إلى ما كتبتْهُ هنا»، قال، وهو يشير إلى مقطع من الرِّسالة: «أرى طيبة في عينَيكَ». «المجنونة ترى طيبة في عينَيكَ».

أعرف أنه من الصعب أن نفهم كيف لأحد ما أن يهتمّ بشخص سجين. أنا أيضا وجدت صعوبة في فهم هذا الأمر. دوني هو من شرح لي تلك الظاهرة. «كما أنّ هناك من الرجال من يحبّ الصدور الممتلئة والأرداف المكتنزة، هناك من النساء من يرغبن فينا»، قال. «يحببن الفاسدين. واللصوص. وقطّاع الطرق. والمرضى النفسيّين. والقتلة. ومحترفي التجارة غير الشرعية. لست أدري إن كان ذلك بسبب جرائمنا أو شهرتنا، وأسلحتنا، أو بسبب جاذبيتنا الخاصّة، المؤكّد أنهنّ يفتتنّ بنا. أتذْكرُ ذلك اللاعب الذي ألقى بالحامض الحارق على وجه زوجته؟ تزوّج بإحدى المعجبات به. هنا بالضبط، في هذا السجن».

كان دوني يحبّ أن يعرض ما يسمّيه هو «نظرية حول الموضوع». «إن مشكلة النساء البرازيليات»، كان يقول، «هو أنّ جزءا كبيرا من السكّان الذكور يوجدون في السجن. وفي وقت قريب جدّا، لو استمرّ الوضع على هذه الوتيرة، لكان لدينا من الرجال في السجون ما يفوق عدد الرجال الأحرار في البرازيل. فكيف ستتصرّف النساء البرازيليات؟ مثل ما تقوم به روبْيا، التي تفعل ذلك بكل ذكاء: أن يتعلمن كيف يعشقننا». «لأنه الوقوع في غرام رجل نزيه»، كان يقول، «سيكون من نصيب النساء المنحرفات».

كانت أولُ رسالة كتبتُها إلى روبْيا هي تلك التي أملاها عليّ دوني. بعد ذلك، أصبحتُ مدمنا على الأمر بطريقة ما. أكتب رسائل، أتلقّى رسائل، أعيد قراءة رسائل، وهذا ما جعلني أرى منها أحجاما متراصّة. ملامس مختلفة. تنسيقات متكاملة. فراغات ونتوءات. كنتُ أكاد أرى السهم الناري يشتبك منذ البداية.

كانت أول زيارة يوم أحد، قبل أعياد الميلاد. كانت روبْيا طويلة بما يكفي حتى لا تعد من الأقزام، لها جسد نحيف، وشعر قصير جدّا وجمال مرح، وتبدو أقل من سنواتها الأربعين.

جلبت معها حلويات غير محشوّة، وَفق نظام السجن، وألبوم صور به «كلّ ما صدر في الصحافة» حول شخصي.

«كنتُ دائما أرغب في التعرّف على مجرم»، قالت، قبل أن تلصق فمها بفمي.

لستُ أدري إن كانت طريقتُها في الارتماء نحو المجهول، أم لسانُها، بمذاق النعناع لكن موجة فرح اجتاحتني مندفعة، فتدفق الكلمات في ذهني دفعة واحدة:

صفٌ،

ثقبٌ،

أُقْسمُ،

أَثْقُبُ،

مُظْلم و

مستقبلٌ.

ما زلت أُركّبُ الصنابير وما زلت أحطّم في ذلك الأرقام. أحبّ أن أُفصّل القطع وأحولها إلى شيء نافع. أحبّ أن أشعر أنّني منتج. كما أنّني أؤلّف كتابا حول حياتي. كتابا تعليميّا، أشرح فيه لأشخاص من الطبقة المتوسطة، مثلي، كيف يتحمّلون السجن وظروفه. حسب دوني، فإن هذا العمل سيكون من الفرص التجارية الجديدة في مجال كتب المساعدة الشخصية على المستوى الوطني.

لا يعتقد أطبّاء الولاية أنّني أعاني من الصّرع. وأنا بدوري لست واثقا من الأمر، على أنّني، من حين لآخر، أشعر بضغط على مستوى الرقبة، بسبب الضجيج. منذ أن أقلعتُ عن تناول الأدوية، بتُّ أخشى أن أتعرّض لنوبة صرع. الضجيجُ يزعجني، لكنّه لا يجعلني أفقد عقلي. كما أنّني محظوظ لأنني أعيش في جناح هادئ، حيث لا حياة هناك بعد الساعة العاشرة ليلا. نتبع نظام عيش صارم. نحترم الصمت وننام بانتظام.

يمكنني أن أقول إنّني مرتاح. الأكل سيّئ، هذا صحيح، وأحيانا يجعلنا نتغوّط الدم. لكن دوني دائما إلى جانبي. نلعب النرد، مثل عجوزَين. لا تنقصنا سوى الساحة. ليلا، قبل العشاء، أقوم بتمارين عضلات البطن، لكني لم أعد أقرأ شِعْراً.

قام المحامي باستئناف قرار القاضي لكنه خسر الدعوة. ثم استأنفه مرة أخرى وخسر من جديد. لم نلتقِ مرة أخرى، منذ أن توقّفت هيلينا عن دفع أتعابه.

لديّ أهداف وانتظارات. وهذا ما يحافظ على قوّتي. الآن، أنتظر

أن يستجيب القاضي لطلبي في الحصول على زيارة حميمية، حتّى أتمكّن أنا وروبْيا من قضاء ساعة من الحبّ. يومئذٍ، سوف ترتدي ثيابا داخلية جديدة، بألوان اليَغْور وحمار الوحش. هذا ما وعدتني به، على الأقلّ.

عندما ألج جسدها، فسأكون رجلا سعيدا. وأثناء النشوة، سأكون حرا. وفي الليل، سأنام وأنا أفكّر في مشاريعنا المستقبلية.

إن الحبّ، بالنسبة للأرواح الإقْليدية، شيء سخيف دائما. فالعلم، يعدّه سيلا من مادة الفينيليتيلامينْ، مع مستويات عالية من الدوبامينْ والنوروبينفيرينْ. الفيرومونات، بالنسبة لمن يؤمن بذلك.

أما بالنسبة لي، فالحب دليل على أن ذرّاتنا السّيتوبْلاسْماتيّة تعرف كيف تضعُ القوافي. لذلك، لم أعد أشعر بالحاجة إلى الشعراء. فالحبّ، فعلا، يعوّض الشعر.





باتريسيا ميلو

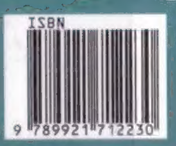


في الإنجيل، في سفر رؤيا يوحنا يمثّل جوج وماجوج العدوَّ للمختارين، وكذلك للمسيح الدجال في رواية باتريسيا ميلو، يشيرُ الاسم إلى الوحش القابع داخل كل فرد منا.

الراوي في هذه الأحداث بأبعادها الكارثية، مُواطنٌ عاديّ يبلغ من العمر 54 عاماً ويدرّس مادة الأحياء في مدرسة مسائية. مهنة مضجرة وحياة روتينية. بإمكانه تجاوز كل المتاعب عدا الضوضاء الرهيبة التي يُحدِثُها جاره إيبغو الذي يقطن في الطابق العُلويّ.

بإيقاع متهيّج ولغة أنيقة مليئة بالكوميديا السوداء، تخترق باتريسيا ميلو عقلَ رجلٍ ضاقَ ذرعاً وأصبح غيرَ قادرٍ على التعاطي بمنطقية مع الحياة المعاصرة. (الناشر)

- "جوج وماجوج" رواية مبهجة ومقلقة في آن واحد. رافاييل مونتس. (صحيفة غلوبو البرازيلية.)
- جمعت ما بين خطاب نقدي للمجتمع، وسرد رشيق وذكي يشدُّ انتباه القارئ. (صحيفة أو إستاداو)
- باترسيا ميلو إحدى أعظم الكتاب البرازيليين في عصرنا. (آر إف آي الفرنسية)


ISBN
9 789921 712230



دار الخان للنشر والتوزيع


@DarAlkhan_kw   Info@daralkhan.com